أربعة أطوار والأنبا شنوده بطريرك

أربعة أطوار والأنبا شنودة بطريرك

تاريخ الأنبا شنودة البطريرك وعصره

معروض في قالب روائي

الفصل الأول

بقلم

سامي المصري

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

إهداء

لمصر أمي

لشعب مصر العظيم صانع الحضارة

هذا الكتاب

الكتاب الذي بين يديك بقدر ما يحمل من طابع الرواية الأدبية الدرامية التي يعتليها ويعتريها مقاطع أدبية ساخرة، بقدر ما يحمل الكتاب تسجيلا دقيقا لتاريخ حقيقي تم استخلاصه من مصادر دقيقة مُوثَّقة، كما تم مراجعته مع كثيرين من شهود العيان للأحداث. وإن كانت تلك الرواية تسجل تاريخ حياة الأنبا شنودة الثالث البطريرك إلا أني قد راعيت فيها أن تغطي أحداث التاريخ المعاصر للأقباط ولمصر بشكل عام. فيمكن تصنيف الكتاب على أنه رواية تاريخية.

لقد راعني غياب التسجيل التاريخي للكنيسة القبطية في فترة من أخطر وأدق الفترات التي حدثت بها الكثير من التغيرات المجتمعية الشاملة، حيث شمل التغيير الكثير من المفاهيم والأعراف المجتمعية والدينية، التي نأت بالمجتمع القبطي عن شكله الأصيل وعن روحه المصرية المتجذرة في تاريخ الحضارة الإنسانية. إن غيبة التاريخ عن أي مجتمع تقطعه من جذوره، وتفصله عن أصالته، وتمنع أسباب تقدمه، الأمر الذي أحدث تراجعا ثقافيا وحضاريا واضحا للمجتمع القبطي.

إن حضور التاريخ أمام المجتمع يُشَكِّل قوة وحيوية تدفع بالمجتمع نحو حياة أفضل. فالتاريخ هو المجدد لحيوية الشعوب كما أنه يصحح مسار الشعوب. لذلك فكرت مرات في أن أعرض التاريخ القبطي لمجتمعنا العظيم، بل وقد قمت بعرض ذلك مرات كثيرة في مقالاتي وكتاباتي سواء بالحوار المتمدن أو في غير ذلك من الكتابات، لعلي أشارك بأي جهد ولو صغير نحو استعادة بعض من سمات ذلك المجتمع الحضارية المتميز بها، عبر تاريخه العملاق الممتد لآلاف السنين.

عند التفكير في إعداد هذا الكتاب لأقدم تاريخ مرحلة هامة أثِّرت في المجتمع القبطي بل والمصري كله، وجدت أن الأسلوب الروائي الحواري لعرض ذلك التاريخ قد يكون أكثر الأساليب تعبيرا عن الواقع. فعندما يسرد الأنبا شنودة قصة حياته متحدثا بنفسه عن سيرته، فلقد وجدت في ذلك طريقة عرض مثلى للكشف ولتوضيح الكثير من

أمور التاريخ الغامضة، التي تكمن أسرارها في المشاعر الإنسانية العميقة، والتي يصعب التعبير عنها بالعرض الكلاسيكي للتاريخ. فالأسلوب الروائي له قدرة خاصة على تحليل وإظهار الحقائق الخافية العميقة للتاريخ بأسلوب أدبي. إلا أن ذلك يعتريه الكثير من الصعوبات ويحتاج لجهد خاص حتى لا يظهر بصورة ضعيفة. حيث تعترضه الكثير من المشاكل الصعبة العرض. ومن تلك الصعوبات ضع الحقائق المتناقضة على لسان المتكلم، وعرض تفاصيل المشاعر في لحظة ما والتي تتغير بسرعة لعكسها بعد ذلك لنفس الشخص المتكلم.

التاريخ بشكل عام لا يمكن لكاتب واحد من أن يعرض كل جوانبه، ولا بد من تعدد الشهود لأحداث التاريخ بشرط الأمانة في العرض، وذلك حتى يمكن تسجيل التاريخ من زوايا متعددة تُمَكِّن من تجسيده في أبعاد متكاملة. لذلك أرحب بكل من يقدم رؤية أخرى لنفس الأحداث حتى لو كانت متعارضة مع ما كتبته فهي تزيد من ثراء التسجيل التاريخي وتضيف أبعادا جديدة لا يمكن لرؤية واحدة أن تشملها. ولعل في الأناجيل الأربعة صورة فريدة من تكامل الرؤى التاريخية لنفس الحدث معروضا من أربعة أبعاد لتجسد الحقيقة أمام القارئ.

بذلك أقدم لروايتي التاريخية عن الأنبا شنودة الثالث وأثره على المجتمع القبطي، بعد أن تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق حسب استطاعتي، أرجوا أن يكون لهذا الكتاب أثره في إظهار وإثراء الحقيقة أمام مجتمعنا القبطي العظيم لتقويم مسيرته نحو غد أفضل.

هذه الرواية في أربعة فصول، أقدم الآن الفصل الأول منها وسيتبع ذلك بإذن الله تقديم باقي الفصول بالتتابع.

مع تحياتي؛
سامي المصري

مقدمة الرواية

لكم تمنيت ومعي كثيرون لو تحقق اللقاء المستحيل بين المتنافرين الأربعة، المختلفين في كل شيء وفي كل المبادئ، مع كونهم شخص واحد عجيب الأطوار في الزمان. إنه يستطيع أن يقنعك بعكس كل ما ناد به بالأمس، ليلغي في الغد كل ما أفتى به اليوم. فالحقيقة عنده لها كل يوم لون يتغير بسرعة مع تغير المواقف. ولديه لها من الأصباغ القوية ما يمحو كل ما أكده في اللحظة السابقة، ليغسل عقول سامعيه المستعدين ليس فقط للنسيان، بل ونبذ العقل تحت وطأة المخدر الديني اللذيذ والمخيف معا، الواعد بالحياة الأبدية والملكوت السماوي، للمطيعين والأغبياء... كل يوم له لون آخر وكل الألوان يختارها بحكمة بالغة لتحقق أهدافا سلطوية، نحو مستقبل أكيد، ولو كره الكارهون...

لكم تخيلت تلك الدورة الحوارية العاصفة في حلبة للمصارعة، بين الأنبا شنودة الثالث البطريرك مع نظير جيد الكاتب بمجلة مدارس الأحد، يحضرها ويشارك فيها كل من الأنبا شنودة الأسقف وأبونا الراهب أنطونيوس السرياني. خفت من هواجس تصوراتي الشقية إذ لا المكان ولا الزمان يحتمل تواجد الأربعة معا، وقد باعد الله بينهم في الزمان حيث لا يوجد مكان واحد ممكن أن يحتمل تواجد الأربعة معا... وهل يستطيع أن يجمع الإنسان ما فرقه الله؟!!!

لكن للعجب فقد نشرت مجلة الكرازة قرارا بابويا بمحاكمة نظير جيد لكثرة ما كتبه ضد البطريرك من مقالات تسيء في كل يوم لقداسة الأنبا شنودة، حتى لو لم يكن يقصد شخص الأنبا شنودة نفسه، ورغم أن بعض تلك المقالات كتبت من أكثر من ستين عاما إلا أن أثرها العنيف لم ينساه الناس مما يُشكِّل تهديدا للتعليم القويم المستحدث الذي ينادي به البابا المعلم اليوم. ذلك التعليم المؤيد بظهور حمامة رمادية، عندما كان يلقي تعاليمه الجديدة التي تمثل آخر صيحة في علم القانون الكنسي، الذي نال عنه العديد من شهادات الدكتوراه الفخرية من أكبر جامعات العالم مع طلب ترشيحه لجائزة نوبل للسلام!!! وحدد البيان

موعد المحاكمة حيث سيكون من بين الشهود أبونا أنطونيوس السرياني والأنبا شنودة أسقف التعليم.

مثل هذا اللقاء يلزم له إجراءات أمن خاصة. هزات أرضية 9 درجات بمقياس ريختر مُتوقَّعة، وأعاصير سماوية وتيسونامي قد يطغي على اليابسة بل وتنقلب الجبال إلى قلب البحار. ألم يكرر نظير جيد مقولته الشهيرة؟ "إبهتي أيتها السماوات واقشعري جدا أيتها الأرض" في تهجمه على الأنبا يوساب الرجل الطيب الوديع الذي لم يكن يملك أو يعرف ما يرد به. وكرر الأنبا شنودة الأسقف نفس المقولة في هجمة قوية ضد الأنبا كيرلس البطريرك في مجلة الكرازة القديمة لكن الأنبا كيرلس كان له من القوة حتى أغلق له المجلة التي أسماها مجلة القذارة. أما اللقاء هذه المرة فمع بطريرك ثالث هو الأنبا شنودة الثالث، الأمر الذي لا يحمد عقباه...

تم إعداد مبني خاص لهذا الغرض مصمما ضد القصف الذري ومجهزا بكل وسائل الإنقاذ تحسبا للمخاطر المتوقعة... انحبست الأنفاس ترقبا لمعركة مجدو التي تنبأت عنها الكتب المقدسة... وقبل الموعد تجمهر أعداد غفيرة من البشر حول المبنى استعدادا للقاء الأربعة. كنت بين المتجمهرين، وحرصت أن أحضر قبل الموعد لأجد موقعا متميزا، رغم علمي أن لا نظير جيد ولا نظرائه قد سبق لهم أن احترموا موعدا يوما ما. ولعل هذه السمة هي العلاقة الوحيدة المشتركة التي تجمع بين الأربعة، فاحترام المواعيد شيمة الضعفاء، أما الأقوياء القاحمون الصدَّامون فلا ينبغي عليهم ذلك الالتزام حتى لا يشك الناس في ضعفهم، وأن قوتهم الشمشونية قد أصابها وهن.

أول من ظهر في الأفق كان الأنبا شنودة أسقف التعليم. كان ذلك متوقعا، فهو من ناحية يبحث عن مآخذ لأي بطريرك كي ما يهاجمه ويشنع عليه، كما يسعده أن يرى عنفوان البطريرك وهو يتكسر أمام ضربات نظير جيد القوية السريعة التي يعرف كيف يسددها في الوقت المناسب. في نفس الوقت كان يتوق أن يرى نظير عدوه الذي هاجمه مرات بمنتهى العنف وهو يندحر تحت القرارات الباطشة للأنبا شنودة

البطريرك. وقد أتى ليشهد عليه ويُوقِّع على كل قرارات حرمه بإمضائه بكل سعادة...

عندما اقترب الأسقف حياه جمهوره بالهتاف والزغاريد فانبسطت أساريره في تواضع مرسوم، يدغدغ شهوة النفاق لينساب زيف المديح مدرارا.. مدرارا.. فتشجع البعض ليقدموا له السجود في الشارع... ثم دخل المبنى حيث انغلق الباب خلفه وكأن يمَّاً قد ابتلعه فأطبقت عليه الأمواج... تكرر المشهد بما يناسب عند حضور أبونا أنطونيوس السرياني فكل له جمهور مختلف من أجيال متعاقبة. أما نظير فقد ظهر متألقا من خلف أستار الزمان، متأخرا كالعادة. وعند ظهوره ضج المكان بالصرخات والهتافات ما بين مؤيد من الجيل العتيق، وبين أصوات السباب والشتم مدفوعة الأجر، التي حرَّضت المغيبين لاستثمار مواهبهم الحنجورية في هدير مخيف، ولولا لطف الله ورجال أمن البطريركية لما أمكن تخليص نظير من أيادي الجمع الثائر الهادر، فسارعوا بخطفه وأدخلوه بسلام للمبنى وِأغلق الباب...

أما نحن الشعب فوقفنا خارج ملكوت الإله الجديد متحيرين، نضرب أخماسا في أسداس... نحاول أن نتلصص بخيالنا لداخل المبنى لنتصور ماذا يدور من أحداث جسام، ما بين متشائم ومتفائل. كان أكثرنا تفاؤلا يهون على نفسه الأمر بقوله أن الحرم لن يؤثر على شخصية نظير القوية، لكنه لن يسكت بل سيلقي بلهيب كلماته حمما من قذائف فمه. مدافعا عن القانون الكنسي المكسور.. منددا بالمفاسد والمظالم البطريركية...

أخذني وسن الانتظار، وشطح خيالي لداخل المبنى الفولاذي، رأيت نظير يحتج بكل العنف ضد فساد البابا وحاشيته من راكبي المرسيدس الذين يتقاضون الرشاوى بلا استحياء من فقراء الشعب. كانت حاشية البطريرك أيام الأنبا يوساب يحتكرها خادم واحد بلا رتبة كنسية، أما اليوم فالحاشية مُشكَّلة من العديد من الأفراد برتبة أسقف أو مطران، وبذلك ارتفعت الرشاوي لعشرات ألوف الجنيهات، أما الطلاق وتصاريح الزواج فهو أغلى أنواع الخدمات ويلزمه الوساطة حتى

تصل لمن يتم له الدفع. الفساد سمة عامة تُغلِّف كل شيء في هذا العصر... التعليم انتهى تماما... معهد الدراسات القبطية الذي أقامه الأنبا يوساب وأعده وأمده بأعظم علماء عصره، انتهى أمره عندما تولاه الأنبا شنودة، فتحدى العلماء واضطهدهم، فتركوه واحدا إثر الآخر، حيث اختطفتهم كبرى جامعات العالم، بينما أقفر معهد الدراسات القبطية من العلم وصار جثة هامدة، بعد أن صار المعلمين فيه بلا مؤهل علمي. وكما ضاع المعهد ضاعت الإكليريكية. ويكفي أن الأنبا شنودة يفاخر بأنه يدرس بها سبعة مواد، بينما هو لم يتلقى أي تعليم أكثر من الإكليريكية المسائية التي لا تمثل أكثر من شهادة محو الأمية.. وضاعت الرهبنة وضاعت الرعاية فانتشر الطلاق بشكل مخيف بين العائلات القبطية، حيث يرعاهم الكهنة غير المؤهلين...

وبينما كنت أقف مع الحشد الهادر أخذ بعض المسئولون من رجال الكاتدرائية يتفقدون الموقف مع رجال الأمن والبلطجية. اقترب مني أحد المسئولين عن النظام حيث كانت علامات الانفعال بادية على وجهي ومع زفير أنفاسي الملتهبة. قال لي هون عليك لا يوجد أي داعي للانفعال إنهم يحتفلون في الداخل...

ماذا؟!!! تقول يحتفلون... قلتها بكل الحنق والغيظ...

هدأ الرجل من روعي وبدأنا نتجاذب الحديث كان صوت الرجل وأسلوبه مألوفا لي، بل وشعرت أنه كما لو كان يعرفني... تشجعت وسألته عن اسمه، وما أن نطق به فلم أتمالك نفسي فاحتضنته.. إنه صديق عمري الذي ضاع مني منذ أكثر من خمسين عاما مضت. رغم أن الزمان قد حفر علي وجهينا آثاره، والأسنان فارقتنا والشباب هاجر منذ زمان ولم يترك له عنوان. رغم كل ذلك التغير الكامل فالحنين للماضي قد غلفنا بحميمة لم يغيرها الزمان بل أكسبها عمقا بمشاعر يختلط فيها الفرح بالشجى والمرارة بالبهجة. سألني لماذا أنت واقف في الخارج...؟ تريد دعوة للدخول؟ بس كدة... تعالى معي...

تقدم الصديق القديم أمامي وأخذني إلى داخل المبنى من باب خلفي حيث صعدنا السلم وأدخلني ... إلي... أين؟ ... سيدي قل لي بحق الصداقة القديمة إلى أين تأخذني...؟

أخفض صوتك ... أنت في الدور العلوي عندما أفتح الباب ستكون في اللوج أمام المسرح تماما. حيث ستتم المحاكمة والاحتفال...

تقول الاحتفال مرة أخرى... ماذا تعني؟!!!

اصمت سترى كل شيء بنفسك ... الكلام هنا بحساب ..

وإذ بي أمام مسرحا مجهزا للعرض . المدعوون يلبسون الملابس الرسمية وسيدات المجتمع الراقي يلبسن ملابس الاحتفال والسهرة الكل في صمت يتابع التنبيهات المتلاحقة مع الموسيقى التصويرية التي تنبئ بقرب افتتاح الستار لتبدأ المحاكمة!!!!!

هل هي محاكمة أم احتفال أم مسرحية أم ماذا؟!!!!!

في عصر الأنبا شنودة كل شيء يختلط ببعضه فلا يمكن التمييز

****

بهذه المقدمة أبدأ كتابي التاريخي عن السيرة الذاتية للأنبا شنودة الثالث، بعد أن تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق بالغ حسب استطاعتي. هدفي من ذلك هو أن أسجل مرحلة كاملة وهامة من التاريخ القبطي الذي أهمل تسجيله.

وإلى اللقاء مع نظير جيد في الفصل الأول

الفصل الأول

نظير جيد
من الطفولة حتى الرهبنة

طفولة تعيسة ضائعة، شباب متهور نزق، رجولة تسلقية مغامرة

صورة تذكارية للطفل نظير جيد مع شقيقه شوقي والأخ الأكبر روفائيل غير الشقيق

الوالد تزوج ثلاث مرات في المرة الأولى أنجب روفائيل ونظيرة بعد وفاة الزوجة الأولى وزواج أولاده، وكان قد جاوز الستين، فتزوج بفتاة صغيرة لتأنس وحدته، فأنجب منها **شوقي ونظير**، لكن الزوجة توفت عقب ولادة نظير. لم يكن ممكن ترك الطفلين بلا رعاية فتزوج للمرة الثالثة.

قانون الكنيسة يمنع ابن الزوجة الثانية والثالثة من الرسامة لأي رتبة كهنوتية حتى رتبة شماس، ولكن في غفلة من الزمان صار نظير ابن ا لزوجة الثانية

البابا شنودة الثالث

بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

(1) البدايات الأولى والطفولة

انفتح الستار على صوت الحاجب يقول محكمة....

ظهر الأنبا شنودة الثالث بثوبه الفاخر المبرقش، وفوق رأسه التاج الذهبي ممسكا بعصا الرعاية في أروع صور البهاء والعظمة. وتقدم حيث سلم عصاه لتلميذه وجلس على عرشه. تبعه كل من الأنبا شنودة الأسقف وأبونا أنطونيوس السرياني، وكان في الخلف يسير المتهم نظير جيد. رافق مسيرة الموكب التصفيق الحاد مع الزغاريد، إلى أن رفع الأنبا شنودة يده ليبدأ الحديث، فصار سكوتا أحرى. قال:

أنتم تعلمون الجهد الكبير الذي بذلته حتى أبلغ للكرسي الجالس عليه رافعا تاج أمجادي فوق رأسي، حيث بلغ سلطاني لأقصى الأرض. ملكوتي لا تغرب عنه الشمس، يمتد من أستراليا شرقا إلى أمريكا غربا بل يرتد ثانيتا للشرق، لجزر الهاواي. كنت في شبابي معجبا أشد الإعجاب بالإمبراطورية البريطانية التي لا تغرب عنها الشمس وسيطرتها على العالم. اليوم أنا تفوقت عليها بجهدي وحكمتي. وبعد كل ذلك الجهاد المضني وما حققته من سلطان فلن أسمح لأحد أن يتطاول على مكتسباتي، تاجي الذهبي، وكرسي الأثير، وعصا رعايتي التي بها وصلت إلى قمة مجد العالم. نحن اليوم أمام محاكمة خطيرة حيث يتعرض سلطاني للإساءة والتجريح وأسمع كل يوم من يهاجمني معتمدا على مقالات المدعو نظير جيد التي ظهرت في مجلة مدارس الأحد منذ عام 1947 وحتى عام 1954. فوجدت لزاما عليَّ أن أحضره أمامكم ليحاكم، مهما كلفني الأمر ومهما كان التحدي الذي اضطرني أن أجتاز الزمان لأحضره من الماضي إلى المكان. وقد اجتزته لأثبت أنه لا يستعصى عليَّ شيءُ، فحتى الزمان يخضع لي صاغرا، وها هو اليوم يحاكم أمامكم من خلف أستار التاريخ.

محاكمة اليوم مختلفة عن كل ما سبقها من محاكمات تمت في عصري. أنا القانون، وأنا القضاء، وأنا العدل بل الحق نفسه. لا يوجد حاجة لدفاع عن متهم ولا شهود نفي ويمكن استحضار شهود الإثبات فقط بما

في ذلك الشهود مدفوعي الأجر. لا يوجد استئناف بعد محاكماتي فالأحكام نهائية. ولِما في محاكمة اليوم من حساسية خاصة فقد كلفت الأنبا شنودة أسقف التعليم أن يقوم بدور النيابة ليوجه للمتهم الاتهامات، أما أبونا أنطونيوس السرياني فكلفته بالدفاع عن المتهم، ويعتبر ذلك رحمة خاصة بظروف هذه القضية وحدها لم أسمح بها من قبل ولن أسمح بها فيما بعد. أنا المختار من الله لأمثله على الأرض ومن يعيب فيَّ يعيب في ذات الله نفسه.

تصفيق حاد وزغاريد....

****

الأنبا شنودة الأسقف يوجه الاتهام لنظير جيد

صاحب القداسة، الحبر الجليل، أب الآباء، وراعي الرعاة، ثالث عشر الرسل، وقاضي المسكونة، فم العطر، الطوباوي، ذهبي الفم، رئيس رؤساء الكهنة الجزيل الإكرام، الأنبا شنودة الثالث أدامه الله علينا سنين عديدة... وأزمنة سلامية هادئة مديدة...

المتهم نظير جيد الماثل أمامكم اليوم اعتاد على مهاجمة البطاركة بكل صور التحدي والاستفزاز، بل ويقوم بالتشجيع على العصيان والتجاسر على شق عصا الطاعة على البطاركة، مما يظهر ميوله البروتستانتية الواضحة. أنه ليس فقط لا يحترم الكهنوت بل يُشجِع على الاستهانة به والثورة عليه، مما تسبب بشكل مباشر في خلع الأنبا يوساب من كرسيه. ورغم مرور كل ذلك الزمان على كتاباته فإن آثارها القوية ما زالت تشجع صغار النفوس على مهاجمة الكهنوت الذي ترقى في عصركم العظيم حتى صار هو الكنيسة نفسها. إن مقولات المتهم يستخدمها ويتمثل بأسلوبه الهجومي كل المتمردين علي الكنيسة (الإكليروس). الأسوأ من كل ذلك أنه كان متطرفا في استخدام القوانين الكنسية القديمة التي عفى عليها الزمان ويتشبث بالكتاب المدعو الدسقولية (تعاليم الرسل) وبقوانين المجامع المسكونية خاصة قوانين مجمع نيقية، كما يتمسك بالكتب القانونية القديمة الأخرى المماثلة، ليتجرأ ويهاجم أرثوذكسية قداستكم المستحدثة، لعصر التجديد الذي قمتم

بإرساء قواعده العبقرية. وطبقا لعصر الحداثة فالبطاركة يُختارون من بين الأساقفة بالقرعة الهيكلية، وذلك تطبيقا لقواعد الشرف السنية والتي فرضتكم للجلوس على كرسي مار مرقس رغم كل الرافضين والمعارضين لهذا النظام الأمثل لاختيار البطريرك، تحت شعارات القوانين الكنسية القديمة البالية.

ومما يؤكد خطورة المتهم على الفكر المعاصر أنه كان المناصر الأول للراهب متى المسكين، وأيضا كان من تلامذة الدكتور وهيب عطاالله (الأنبا غريغوريوس). فهو بشكل دائم يناصر أعداء الكنيسة الممثلة في شخصكم الرفيع. ومن الوثائق الهامة التي أعرضها على المحكمة مقدمة "كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية" في طبعته الأولى. الراهب الذي أخفى اسمه من على الكتاب استعراضا وكبرياءً، عند طباعته لأول مرة، سمح لنظير جيد بوضع اسمه في مقدمة الكتاب، مما يظهر قدر ثقة الراهب متى المسكين في المتهم. فإن كنا نتهم الراهب بالهرطقة فإن تهمة الهرطقة من المؤكد تقع على نظير جيد الذي يوليه كل ذلك القدر الكبير من ثقته.

إن مقالات نظير جيد المدافعة عن القوانين الكنسية[1] لتمثل أخطر وثيقة اتهام لقداستكم وعصركم التحديثي العظيم، مما يشكل خطرا على فكر الأقباط، فيعيد تنبيه عقولهم، وتوجيه تفكيرهم وميولهم نحو الحرية والمفاهيم الديمقراطية للقوانين البالية. فبعد كل ذلك الجهد الجبار الذي بذلناه لتوجيه كل الأفكار ووضعها في أفكار نمطية سابقة التجهيز للتوجه نحو ملكوت السماوات كهدف وحيد أسمى للحياة، وكل واحد يدور على خلاص نفسه، وليمتنع تماما عن التفكير في كل الأمور الكنسية، بل يتركها لحكمة البابا المعظم وحده، وكل من يوليه شرف مشاركته في حق التفكير. إن تعاليم نظير جيد تُحفِّز الشعب على التفكير الحر خارج النطاق والسياق الذي رسمته قداستكم بنفسك، لتضع القيود والمحاذير التي تضمن الملكوت السماوي للمطيعين. إن ما يقوم به نظير هو ثورة فكرية ضد قداستكم وتمرد على القيم الأرثوذكسية الرفيعة التي أرسيتموها، لكل ذلك أطالب بتوقيع أقصى العقوبة علي

[1] http://www.coptictruth.com/docs/index.html

نظير جيد بقطعه من شركة الكنيسة القبطية الواحدة الوحيدة المقدسة الأرثوذكسية.

البابا: فليدافع المتهم عن نفسه وليشرح لنا الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى هذا السلوك المتطرف الذي يثير الفتنة، ويحُرِّض على الثورة التي تحرم من الملكوت السماوي بحسب تعاليمنا التي أرسيناها بكل دقة. كما تُعرِّض أمن الكنيسة الممثلة في شخصي لخطر داهم.

نظيرجيد:

سيدي قداسة البابا المعظم أب الآباء وراعي الرعاة الأنبا شنودة الثالث آدام الله حبريته. ليتك تسمع لي حتى يدرك الجميع الأسباب العميقة في تاريخ حياتي التي أدت بي إلى هذا الوضع. إنها ثلاثة أسباب، طفولة تعيسة ضائعة، ترتب عنها شباب متهور نزق، ترتب عليهما رجولة مغامرة تسلقية...

الأسقف: أعترض إنه يريد أن يخرج بنا عن الموضوع في أحاديث مطوَّلة عن تاريخ حياته كما يلاحظ أنه يستخدم عبارات تملقية ناعمة لأول مرة لم نعتادها من قبل في أسلوبه المتبجح في تعامله مع البطاركة.

البابا: دعه يكمل حديثه وليُعطَى الحق كاملا في الدفاع عن نفسه...

نظير:

شكرا يا قداسة البابا؛ قلت أول الأسباب هي طفولتي التعيسة الضائعة فلقد ولدت بقرية سلام مركز أبنوب من أعمال مديرية أسيوط (محافظة أسيوط الآن). حين أدركت وجودي كان الكل يدعونني "الفجري" حيث كانت التهمة الموجهة لي دون ذنب هي أني كنت السبب في موت أمي التي لم أراها ولم أعرفها، اخبروني أنها قد فارقت عالمنا بعد ثلاثة أيام فقط من ميلادي التعيس...

- اغرورقت عيني البابا بالدموع وأخذ ينصت باهتمام شديد.. قال أكمل

والدي العجوز كان قد تجاوز السبعين عاما من العمر. شقيقي شوقي الذي يكبرني بثلاثة أعوام كان يعاني مثلي من زوجة الأب التي كانت تهتم بولديها وتهملنا تماما. كنت كثيرا ما أترك البيت لمنزل المرأة المسلمة التي أرضعتني فكانت لي الصدر الحنون الذي يشفق عليَّ. لم يكن إشفاقها يرضيني بل أحيانا كان يؤذي مشاعري ويذكرني بأنني السبب في موت أمي كما كانت دائما تذكرني بأفضالها عليَّ فهي السبب في حياتي وبقائي. كنت ألعب مع ابنتها التي يقولون أنها أختي في الرضاعة فكانت سلوتي الوحيدة التي تشعرني بطفولتي. لقد كان لي أكثر من أخ وأخت في الرضاعة حيث تبادلت نساء القرية رضاعتي فكان لي أخ آخر. كانت زوجة أبي دائما متجهمة ثائرة كما كانت تضربني أنا وأخي شوقي بقسوة. وكانت دائمة الشجار مع أبي العجوز المريض. وكانت تقول له لقد تزوجتني حتى أكون خدامة لأولادك.

كان أبي دائم الفخر بابنه روفائيل مدرس اللغة الإنجليزية، وفي يوم من الأيام وصل منه خطاب يخبرنا بحضوره للزيارة. كان يوما مبهجا عندما حضر أخي لبلدتنا فشعرت بمحبته وحنوه الشديد عليَّ واهتمامه بنا أنا وأخي شوقي. روفائيل أخي الكبير يكبرني بأكثر من 30 عاما، وعلمت أن والدته قد توفت منذ زمن بعيد. وعندما غادر البلدة للعمل، تزوج أبي من والدتي صغيرة السن التي لم تعش طويلا. ولم يكن أبي في استطاعته أن يعولنا ونحن في هذا السن الصغير فتزوج للمرة الثالثة، إلا أن زوجته لم تكن لتحتملنا، مع مرض أبي وهو في سنه الكبير الذي لا يسمح له بالعمل خاصة بعد أن فقد كل ثروته في زراعة وبيع القطن، مما ضاعف المشكلة بقلة الموارد. في ذلك الوقت قامت حكومة الاستعمار البريطاني بإجراءات مشددة على زراعة القطن كانت من نتيجتها إفلاس معظم التجار وتعريض الزراع للإفلاس.

بدأت المشاحنات بين والدي وزوجته تتزايد في كل يوم إلى أن بلغت لحد لا يمكن معه الاستمرار. وفي يوم طلب أبي من أخي روفائيل الحضور على عجل حين تقرر رحيلنا أنا وأخي شوقي لنستقر بشكل نهائي في بيت أخي الأكبر روفائيل الذي كان يعيش في بنها. ولم يمر

وقت طويل حتى لحق بنا الوالد، الذي لم تتحمل زوجته الجديدة بقاءه بعد إفلاسه وهو بلا عمل.

رحلة القطار إلى القاهرة في عربة الترسو بالنسبة لي كانت مبهجة للغاية ثم إلى بنها بينما كان الجميع واجما حزينا. داعبتني أحلام سعيدة حيث غادرنا زوجة أبي بلا رجعة إلى بيت أخي الذي كان يُحنو عليَّ، فلم أكن أتوقع أبدا ما كان ينتظرني من مزيد من الأحزان والقهر والإهمال.

عندما نقل أخي روفائيل إلى القاهرة كنت قد حصلت على الشهادة الابتدائية وهو نظام تعليمي جديد بينما أخي شوقي كان يتبع النظام القديم، شهادة الكفاءة التي كان قد حصل عليها قبل ذلك.

سكن أخي روفائيل بشبرا في شارع حسن باشا حلمي رقم 8 المتفرع من شارع الترعة. المنزل يتكون من ثلاث حجرات وصالة متسعة بالدور الأرضي. زوجة أخي التي كانت تشعر بالضيق لوجودنا تمثلت أمامي كزوجة أبي. وكما تركت في البلدة طفلين هم أخوة لي لهما حق الأولوية مع زوجة أبي كذلك زوجة أخي كان عندها طفلين لهما نفس الحق في بيتهما. المنزل ذات الحجرات الثلاث بالدور الأرضي كان عليه أن يستوعب والد مريض يحتاج لرعاية خاصة، وحدثين في مرحلة المراهقة. وتفاقمت المشكلة أكثر فيما بعد بتزايد أولاد أخي روفائيل لخمسة، ثلاثة أولاد وبنتين. الحجرات الثلاث منهم غرفة المسافرين مخصصة للزوار، وحجرة لنوم أخي روفائيل وزوجته، ولمن يصرح له بالنوم معهما من البنات أما الحجرة الثالثة بها سرير أبي الذي وصل لمرحلة صحية متأخرة تجعله مستقرا في سريره بشكل شبه دائم، وفي نفس الحجرة ينام الباقي بشكل عشوائي. وأحيانا لا أجد مكانا للنوم إلا على الكنبة بالصالة أو على الأرض.

أخي شوقي وجد حلا سعيدا، إذ اكتشف المدرسة الإكليريكية بمهمشة التي تبعد عن المنزل عشرة دقائق سيرا على الأقدام. ومن مميزاتها أنها مدرسة داخلية والتعليم بالمجاني بما في ذلك الإقامة. لكنه ما كاد يستقر بالمدرسة حتى واجه مشكلة خطيرة وهي أن القانون الكنسي

يمنع رسامة ابن الزوجة الثانية لأي رتبة كهنوتية حتى رتبة الشماس. لم يكن لشوقي أي فرصة للاختيار فهو ليس مستعدا لأن يرجع لبيت أخوه المكتظ مُفضِّلا الاستمرار في المدرسة، وبعد التخرج ليكن ما يكون. القانون يمنع رسامته كاهنا لكن هناك من يعملون بالوعظ من خريجي المدرسة، وإن كان أجرهم ضعيف لكنه أفضل من العودة لبيت أخوه روفائيل المثقل بالمسئوليات نحو زوجته وأولاده ووالد مريض وآخر الكل الصغير نظير.

المشكلة الكبرى في حالتي أنا نظير، فمع محبة أخي روفائيل وتضحياته البالغة فأنا لا أجد لي موقعا على الخريطة سواء بالليل أو بالنهار. كانت مدرسة التوفيقية الثانوية الشهيرة هي أقرب المدارس لمنزل أخي لكن مجموعي الضعيف لم يكن ليسمح لي بدخول المدارس الأميرية، ومن ناحية أخرى كانت مصاريف المدرسة تشكل عبئا إضافيا على أخي المثقل من جميع النواحي. قبلت في مدرسة الإيمان الثانوية التي كانت تبعد عن البيت حوالي خمسة كيلومترات، كان علىَّ أن أقطعها ذهابا وإيابا في كل يوم. وعند العودة للبيت بعد ذلك المشوار المنهك لا أجد لي مكانا للاستذكار. أولاد أخي المدللين كانوا لا يعطوني أي فرصة للراحة أو الاستذكار. عندما كبرت قليلا انطلق شعري ليعبر عن حالتي المأسوية لم يكن ذلك الشعر له أي علاقة بالدين بل بالواقع الحياتي الذي أعيشه.

غريب لم أجد سمعا أفرغ فيه آرائي ...غريب لم أجد بيتا ولا ركنا لإيوائي

كان أخي شوقي يزورنا من حين لآخر، فكنت أشعر بسعادة بالغة، وبدأت تظهر عليه علامات التدين فكان يصلي وكان يُحثني على الذهاب للكنيسة. في تلك الأيام كانت الكنائس فارغة من المصليين، فالكثير من العائلات القبطية لا تعرف باب الكنيسة والبعض يذهب في الأعياد فقط. كان أخي روفائيل يتهكم على شوقي عندما يطلب منه الذهاب للكنيسة ويقول له "خدنا على جناحك لما تصعد للسما". وأنا لم أكن استسيغ الصلوات الطويلة والألحان التي لا أفهم معناها، رغم ذلك كنت أحب كلا الأخوين.

كان أخي روفائيل أنسانا محبا باذلا لأقصى درجة مما هون علىَّ الكثير من الآلام. عندما حصلت على الشهادة التوجيهية أبدى استعداده لمساعدتي للاستمرار في الدراسة الجامعية بكل شهامة. فرغم أهوال الحرب العالمية الثانية وصعوبة الحياة والغلاء المريع واحتجاب المواد التموينية الأساسية فلم يبخل علي بأي شيء.

بذلك انتقلت للمرحلة التالية وهي المرحلة الجامعية، كانت بالنسبة لي مرحلة الشباب المتهور الجميلة.

(2) المرحلة الجامعية والنشاط السياسي

دخلت كلية الآداب جامعة فؤاد الأول قسم التاريخ. وكان أكثر ما شدني في الحياة الجامعية الجديدة هي الإضرابات وزعماء الإضراب الذين كنت منبهرا بهم جدا. كان أغلبهم من الأغنياء والإقطاعيين القدامى أصحاب العزب والأطيان. لم يكن التعليم يهمهم كثيرا وكان أساتذة الكلية يعملون لهم ألف حساب حتى عميد الكلية، فمنهم أولاد البشوات والوزراء والإقطاعيين. وكانوا يمثلون كل الأحزاب السياسية في مصر وفديين وسعديين وحزب مصر الفتاة والأحرار الدستورين.

ظهر حزب جديد هو حزب الكتلة قالوا أن رئيسه هو مكرم عبيد باشا بعد انفصاله عن الزعيم مصطفى النحاس باشا. أخطر من ظهر في ذلك الوقت هم الشيوعيون الذين لم يكونوا من الأغنياء بل كانوا يتميزون بالحماس الشديد، حيث كان البوليس السياسي يتابعهم ويقبض عليهم. كما ظهر الإخوان المسلمون، الذين تميزوا بالعنف وكان كثيرا منهم يحملون الأسلحة النارية والكرابيج، وكان الشيوعيون هم العدو الأول لهم حيث كانوا يعتدون على بعض بمنتهى الوحشية داخل الكلية.

لم يكن يهمني كثيرا الفروق بين كل تلك التكتلات حيث لم أكن أميز بينهم بقدر ما كان يبهرني الأغنياء من الزعماء فلأول مرة في حياتي أرى بعيني رأسي الورقة أم مدنة (ذات المائة جنيه الحمراء) ولقد لمستها مرة بيدي فشعرت بنشوة ما بعدها نشوة. كانت تلك الورقة منتشرة بينهم مع أني لم أراها في حياتي إلا معهم. كان يسعد الزعماء أن يجمعوا حولهم المعجبين من الطلبة في نشوة وزهو، وكنت أحد المعجبين بهم حيث كنت أشعر بالشرف العظيم بالحديث إليهم.

لما عرف الزعماء إني أكتب الشعر شجعوني جدا فهم في حاجة إلى الشعر الذي يشعل الحماس في الإضرابات وطلبوا مني أن أكتب لهم شعري، فكتبت قصائد هجائية قوية ذات نغم يسهل ترديده في الهتافات فنفحوني في أول قصيدة عشرة قروش كاملة تشجيعا لي. كان أكثر الزعماء شعبية وعظمة هم زعماء حزب الوفد لكن حزب الكتلة كان أكثر أمانا حيث لا يتعرضون لتحرشات البوليس السياسي ولا لمخاطر

القبض عليهم مثل الشيوعيين، لذلك كنت أكثر التقرب من حزب الكتلة وصارت بيني وبينهم صداقة حميمة. كان جسمي صغيرا بينما معظم زعماء الإضراب يتميزون بالفحولة والضخامة لست أعرف لماذا، كما كان سنهم يكبر عنا فهم لا يهتمون كثيرا بالتخرج من الجامعة.

في يوم لن أنساه عرضوا عليَّ أن يحملوني على الأكتاف لأقول شعري بنفسي ولن أنسي الحماس الشديد والتصفيق المدوي الذي قوبلت به مما أسكرني. رجعت في ذلك اليوم إلى البيت وأنا في حلم بما حققته من زعامة فلم يغمض لي جفنا تلك الليلة، أخذتني أحلامي بعيدا جدا حتى رأيت نفسي ليس فقط زعيما لإضراب بل زعيم الأمة نفسه. وأخذت أحكي لنفسي في سكرتي قصة زعامتي لمصر المرة بعد الأخرى دون ملل وفي كل مرة أضيف على القصة الكثير. في اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة فوجدت الكثيرين ممن لا أعرفهم يشيرون إليَّ وكنت أتصور أن كل من يهمس أنه يهمس باسمي. ولما قابلت الزعماء الكبار كانوا سعداء بي جدا. اقترح علي أحدهم فكرة جديدة وهي نشر شعري بجريدة الكتلة، ففرحت بالفكرة وتصورت أنها الخطوة الحاسمة نحو الزعامة الكبرى.

لم يمضي وقت طويل إلا وتحدد موعد مع المسئولين في الجريدة وذهبت ومعي أشعاري التي اعتبرتها الباب الواسع إلى الزعامة والأمجاد. وفعلا أعجب المسئولين بشعري البسيط ذو الجرس الممتع والرتم الهادئ. بعد ذلك لم تهدأ نفسي للحظة حتى رأيت جريدة الكتلة وبها شعري لأول مرة وعليه اسم نظير جيد!!! يا لروعة تلك اللحظة!!! عندما كان بائع الجرائد ينادي على الكتلة كنت أحس أنه ينادي عليَّ. ومرت الأيام وتوالى نشر شعري بجريدة الكتلة كما تكرر إلقائي للشعر في المظاهرات مما كان يطربني جدا بل يسكرني، خصوصا عندما أرى الجميع وهم يصفقون لي، ويرددون هتافي وأنا محمولا على الأكتاف.
الدراسة في كلية الآداب قسم تاريخ لم تكن صعبة مما شجعني على تضييع الوقت في المظاهرات حيث كنت أساعد في إعداد اللافتات الكبيرة والقيام بحفظها وكنت سعيدا جدا بهذا التكليف. من المؤكد أن

كل ذلك كان على حساب وقت الدراسة لكني كنت أحرص على النجاح مجرد النجاح فقط وذلك حتى لا أقف أمام أخي الذي أجله في موقف لا يشرف، لكن النجاح بمقبول كان مقبولا.

عام 1944 كان عام هزيمة ألمانيا وانتهاء الحرب العالمية الثانية. رغم استمرار الحرب مع اليابان إلا أن القيود على الإضاءة بدأت تخف، وأنيرت الشوارع بمصابيح الغاز، وبدأت الأعمال العمرانية تنشط متثاقلة. مباني كثيرة توقف بناءها عند بدء الحرب عام 1939 فتركت خرابات مما كانت تشيع الكآبة في النفوس، تضاف للظلمة المدلهمة بالليل بسبب الغارات الجوية. كان هدير المدفعية المضادة للطائرات المرعب تهتز له المساكن مع الهلع وارتجاف القلوب. كل ذلك توقف وبدأ العمران مما كان يبعث شعورا جارفا بالأمل والرغبة في الحياة والفرح مقترنا بالتذمر علي الماضي الأليم. كما تزايدت روح الثورة العارمة بين الشباب بشكل عام. كان الهتاف ضد الاحتلال البريطاني يتردد في كل مكان مطالبا بجلاء القوات البريطانية عن مصر. ومع انتهاء الحرب العالمية تماما في عام 1945 بدأت الإضرابات في الجامعة تتزايد بشكل مضطرد مما كان يعطيني سعادة غامرة.

ومرت سنين الدراسة الجامعية وأنا في قمة الإشباع النفسي الذي يُعوضني كثيرا عن الإهمال الذي ألاقيه في البيت، وما لاقيته طوال عمري من تهميش وازدراء. في ذات يوم اشتريت جريدة الكتلة فلم أجد شعري منشورا. أخذني غضب شديد وأسرعت بالذهاب للجريدة ففوجئت بخبر فصلي. ولما سألت عن السبب قالوا لي أن مكرم باشا ضايقته جدا تلك الشتائم بشعري فأمر برفت ذلك الشاعر. كانت علاقة مكرم بالنحاس وبالوفد علاقة غاية في الحساسية، بينما أنا أكتب شعرا والشعر تحكمه القافية والوزن وليست الحساسيات السياسية، فذلك ليس ذنبي. لكن قرار الباشا كان قد صدر ولا يمكن لأحد أن يرده.

خرجت وأنا في قمة الغضب بل الحزن الشديد حيث تهاوى فجأة أحد العمد الرئيسية من آمالي العريضة دون مقدمات. وفي حلم صبياني ساذج قررت الانتقام من مكرم باشا بأن أقوم بإنشاء حزب جديد من

الطلبة أكون أنا رئيسه وأصدر له جريدة أهاجم فيها مكرم عبيد بشعري كما أشاء دون أن يراجعني أحد. أسرعت الخطى للجامعة وبدأت بعرض خطتي في إنشاء الحزب الجديد على رفاق الأمس الذين كانوا قد شجعوني على الخطو في طريق الزعامة إلا أنهم قابلو أفكاري بنوع من الإشفاق الذي أبغضه. تذكرت السيدة التي أرضعتني وهي تشفق علىَّ من تعنت زوجة أبي، فغامت الحياة أمامي، واغرورقت عينَّي بالدموع، وشعرت بانقباض لم اشعر به من زمن طويل.

عدت إلى البيت مخفيا دمعي وأسرعت لأدس وجهي تحت الوسادة التي تعرفني وأعرفها، فكنت ألوذ بها كثيرا في أحلامي، سواء لأخفي مرارة وحدتي وإحباطي، أو عندما أبحر بي خيالي نحو الزعامة المرتقبة. في ذلك اليوم حضر أخي شوقي الذي كان قد تخرج من مدرسة الإكليريكية وكان يعمل واعظا يجول بكنائس القرى ليحصل على رزقه. بدأ يعظني ويحدثني عن أهمية الصلاة والذهاب للكنيسة. إنه لا يشعر بما ألم بي اليوم ولم يكن ممكن أن يفهمني. حديثه الذي سمعته منه مئات المرات عن الله والكنيسة لم أكن لأطيقه أو أحتمل سماعه، خاصة في تلك اللحظة المريرة بالذات، فرغم حبي الشديد لشقيقي الأوحد واشتياقي لرؤيته فلم أتصرف معه باللياقة الواجبة مما أحزنه.

بقدر ما أنبني ضميري على الطريقة التي صدمت بها أخي. إلا أن فكرة جديدة فجأة أشرقت في أفاق خيالي انبعثت من كلماته، إنها فكرة رائعة. لماذا لا أذهب للكنائس لأجمع أعضاء لحزبي الجديد؟ وفعلا بدأت التنفيذ فورا. ذهبت لأقرب كنيسة من منزلي وهي كنيسة الأنبا أنطونيوس بشبرا، وسألت عن مسئول الخدمة... انتظرته مضجرا في الغرفة الخارجية التي بها المعمودية بمدخل الكنيسة، وعندما حضر أخذت أشرح له مشروع حزبي الجديد. قلت له أني أحتاج لستة أشخاص فقط من بينهم فتاة من كل كنيسة، كنواة لتشكيل حزبي. كان يسمعني بصبر، وما أن أكملت حديثي حتى قال لي، "يا ابني روح ذاكر ومتضيعش وقتك فيما لا ينفع". (أمين مدارس الأحد الذي قابلته ذلك اليوم هو المهندس لبيب راغب وفيما بعد الأب أنطونيوس راغب).

خرجت متضايقا جدا عاتبا على ضيق أفق المسئولين عن الشباب ومدارس الأحد في الكنيسة، وصممت أكثر في عناد على مواصلة مشروعي نحو الزعامة، فذهبت إلى كل كنائس شبرا لأبحث عن وسيلة لتكوين حزبي الجديد بل بدأت في السفر أجوب مع أخي شوقي القرى فكان يسعده أن أتنقل معه وهو يلقي بعظاته. تعرفت في تلك الفترة على الكثير من الكنائس والقائمين على الخدمة فيها مما ساعدني فيما بعد للذهاب لهذه الكنائس كخادم.

أمر آخر أرَّق حياتي وفي نفس الوقت أفاقني من الخرافة اللذيذة التي كنت أعيشها. فوقت تخرجي قرب!!! معنى ذلك أن المظاهرات أيضا هي الأخرى ستنتهي. إنها الشيء الوحيد الذي أشعرني بكياني وحققت فيه وجودي كإنسان. كيف يمكن أن أعيش دون أن ألقي بشعري فيصفق لي الجميع، وأهتف فيردد هتافي الجمع الكبير من الطلبة!!! وما ضايقني بالأكثر هو القرار الجديد بالتدريب العسكري الإجباري أثناء الصيف لكل طلبة الكليات النظرية، فحتى تصدر شهادة التخرج من الجامعة يلزم الحصول على شهادة من كلية الضباط الاحتياط بتمام التدريب العسكري الصيفي والحصول على رتبة ملازم ثاني احتياطي. لنكون جاهزين للاستدعاء رغم أني لم أستدعى بعد ذلك ولا مرة.

المعسكر الصيفي بصحراء ألماظة للضباط الاحتياط اجتمع فيه كل طلبة السنة النهائية بالكليات النظرية فقط. كان ذلك في صيف عام 1946. تقابلت في ذلك المعسكر الصحراوي مع شاب من كلية التجارة كان في غاية اللطف والرقة اسمه توفيق مرقص بشارة وكان يتميز بالعطاء والمحبة الشديدة لكل من يقابله. كان منزله بشارع مرقص بشارة المسمى على اسم والده، وهو قريب جدا من شارع حسن باشا حلمي. معنى ذلك أننا جيران. كان توفيق من خدام كنيسة الأنبا أنطونيوس المتدينين. المنظر لبديع لمغيب الشمس في الصحراء كان يجتذب توفيق، فيصعد إلى تبة داخل المعسكر الصحراوي مع مجموعة من الشباب المتدين ويقومون بقراءة فصل من الكتاب المقدس ثم يتلون صلاة الغروب وأحيانا يضيفون لها صلاة النوم مع بعض الترنيم.

دعاني توفيق لاجتماعهم اليومي ولم أكن أستطيع أن أرفض كما كنت أفعل مع أخي، لِما يتمتع به ذلك الشخص من لباقة مع لطف غير عادي. لأول مرة في حياتي أعرف معنى الصلاة مع الإحساس بالجمال والفرح بمشاركتهم. كان توفيق يعرف كيف يقرأ الكتاب المقدس ويجيد التأمل فيه بما يفيض علينا بمشاعر تترك في النفس روعة مع جمال مغيب شمس الغروب في الصحراء. كانت فترة التدريب العسكري بالنسبة لي فترة نقاهة روحية تعرفت فيها على الكثير من المفاهيم المسيحية. ومرت الفترة بسرعة حيث قضيت وقتا ممتعا في المعسكر مع شخصيات جديدة تتميز بالبساطة والمحبة الصادقة القوية التي كنت في أشد الحاجة إليها. ورغم جسمي الصغير كانت المظاهرات الجامعية قد صقلتني وخلقت في روح الزعامة مما ميزني في المعسكر كممثل عن الأقباط، ففي كل مناسبة وفي كل احتفال كانوا يدعونني للتحدث.

وجاء يوم تخرجي من كلية الضباط الاحتياط حيث كنت مزهوا بالنجمة الواحدة على كتفي التي سُمِح لي بتعليقها لمدة يوم واحد فقط في حياتي لم يتكرر. فلم يحدث أن استدعيت بعد ذلك أو الاشتراك في أي حرب. لذلك يا قداسة البابا لا يشيد أحد بتاريخكم العظيم إلا وذكرى ذلك اليوم الواحد تشهد أنك عملت ضابطا بالقوات المسلحة، مع أني أنا نظير جيد لم أكن سوى مجنَّد ضمن كثيرين مثلي لم يحظوا بشرف الاشتراك في أي حرب، فأضاف تجنيدي الإجباري لتاريخكم سطرا من نور يردده الأغبياء ببلاهة تثير الإشفاق.

عند نهاية التدريب لم يكن عسيرا على توفيق أن يدعوني لحضور درس الكتاب بكنيسة الأنبا أنطونيوس بشبرا. ذهبت لأول مرة في حياتي الكنيسة للتعبد والتعلم. بدأت أذهب إلى الكنيسة أثناء العام الدراسي الأخير عام 1946 / 1947.

تخرجت من جامعة فؤاد الأول كلية الآداب قسم التاريخ في عام 1947، لتبدأ مرحلة جديدة من عمري هي مرحلة الرجولة المغامرة.

(3) الدخول للمجال الديني بعد الفشل السياسي

قداسة البابا المعظم هذه هي المرحلة الثالثة الهامة من عمري، والتي بسبب أحداثها أنا نظير جيد واقف أمامكم اليوم لأحاكم. أشكرك لِما تفضلتم بالسماح لي من عرض تفصيلي لظروف حياتي الأولى، فمن الصعب تفهم تماما حقيقة دوافعي في هذه المرحلة لو لم أعرض بكل تفصيل لأحداث المرحلتين السابقتين. كما أني ممتن لتحملك لمزيد من عبء الإصغاء لباقي قصتي.

التخرج من الجامعة يعني أنه قد انتهى المجال للإضرابات الممتعة والزعامة التي كنت أعشقها. فوجدت نفسي وحققت ذاتي لأول مرة في حياتي في تلك الإضرابات، فكانت مشاعر الزعامة وصوت تصفيق الطلبة يلهب مشاعري ويثير في نفسي أحلام وآمال الزعامة السياسية التي تملكت على نفسي. لم يعد هناك مجالا للكتابة في جريدة الكتلة، أما خرافة حزب الطلبة فقد تبخرت تماما مع الواقع. وما يضيف للأمور صعوبةً أنه بعد تخرجي ظللت لفترة طويلة لا أجد عملا، فبمغادرتي ذلك المجتمع الثوري الذي عشقته كنت أتصور أن آمالي تتحطم تماما. لم أكن أعرف أن الكثير ينتظرني في المجال الكنسي بينما كنت غائبا عنه وكان غائبا عني.

أثناء بحثي عن الزعامة قرأت قصة ممتعة انتشرت واشتهرت بين شباب جيلنا، عن محامي مغامر اسمه حافظ نجيب، اشتهر بالنصب والاحتيال السياسي، وكان مطلوب القبض عليه، وحتى يهرب من البوليس، ذهب إلى دير الأنبا بيشوي، ومع كونه مسلم ترهب باسم الراهب غبريال. كتب في مذكراته أنه لم يكن من أهدافه فقط الاختفاء من البوليس بل كان يطمع في السلطة بالوصول لدرجة أسقف أو بطريرك لو أمكن، وتمنى أن يكون مطرانا للحبشة ليلعب دورا سياسيا هاما. تنقل حافظ نجيب من دير لآخر وغير اسمه مرات ليخفي شخصيته ورقي لقمص وربيتة للدير وكان شاعرا وواعظا مفوه، وعندما رشح للأسقفية كشفه الأنبا كيرلس الخامس فهرب، ونشر مذكراته الساخرة التي كانت موضع تفكه واهتمام من الشباب القبطي.

كان السؤال الشائع في جيلنا، كيف لم يتنبه شباب الأقباط المثقف لتلك الفرصة المتاحة لهم للوصول لمراكز التسلط بينما هذا المحامي المسلم الذكي أدرك ذلك الطريق السهل، والمفروض أنه أكثر سهولة للمثقف القبطي. عندما ترهب وديع سعيد المحامي في دير أبو مقار باسم داود المقاري اتهمه المجلس الملي بأنه كان يسعى للوصول لمنصب البابا تمثلا بحافظ نجيب، فحاربه المجلس الملي ومُنِع من الترشيح للبطريركية في انتخابات الأنبا مكاريوس عام 1944 بل وطرد من الدير رغم تاريخه المعروف في خدمة الشموسية وكان معروفا بالقداسة والتقوى من زمن بعيد. لكنه بعد ذلك تم ترشيحه للبطريركية أمام الأنبا يوساب في عام 1946 وكاد أن ينجح لولا تدخل الظروف.

قصة حافظ نجيب أخذت الكثير من تفكيري مثل الكثير من الشباب القبطي في تلك الأيام، إلا أني لم أكن أتصور أنه يمكن لي في يوم من الأيام الذهاب للدير للترهب لأسباب كثيرة، منها أني لم أكن أجيد التعامل مع المتدين القبطي فقد منيت بالكثير من الإحباط عند الدعوة لحزبي الطلابي في الكنائس. وكنت أتعجب لذلك المحامي المسلم كيف حفظ الألحان القبطية التي لم أكن أستسيغها، وكنت دائم الحوار مع أخي شوقي حول ذلك. لكن القصة لم تغادر مخيلتي أبدا وكان يتزايد ضغطها فيما بعد كلما تعمقت في الخدمة الكنسية حتى أنني سعدت بنشر قصة حافظ نجيب في مجلة مدارس الأحد في عددها الصادر في فبراير عام 1948 ص 16 تحت عنوان "أسرار وتكشفت".

ولعل هذه القصة تلقي بعض الضوء على ارتباطي الشديد بحنين لم ينقطع نحو الزعامة والسلطة، لكن حنيني كان للزعامة السياسية لا الدينية التي كنت أجد فيها صعوبة. فكم استمعت لخطابات النحاس باشا حيث كانت تبهرني الهتافات الحماسية لزعيم الأمة، ولكم تصورت نفسي هذا الزعيم. ولكن بعد أن هجرت السياسة بغير إرادتي وبعد أن اندمجت في المجتمع الديني الذي أعطاني الكثير من الإشباع، إلا أنه لم يستطع أن ينتزع مني متعة، بل سكر أحلام الزعامة والسلطة. لقد حاولت كتم تلك المشاعر التي كانت ترسخ في أعماقي بشكل غامض وكم حاولت مرات أن أخفي ذلك حتى عن نفسي.

دخلت مجتمع خدام كنيسة الأنبا أنطونيوس بعد أن قدمني لهم الأخ توفيق مرقص وكان في الوقت المناسب جدا. كنت في عامي الأخير من دراستي الجامعية عام 1947، الذي تميز بزيادة المظاهرات في الجامعة حيث بدأت الإرهاصات الأولى لظهور دولة إسرائيل، لم أكن لأستطيع التوقف عن المشاركة فيها، بل كنت أشعر أنها فرصتي الأخيرة، فبعد التخرج لن تتاح لي تلك الفرصة مرة أخرى. في نفس الوقت بدأت في التغلغل في الكنسية، وشجعتني تلك المحبة الشديدة التي قابلني بها شباب وخدام الكنيسة، الذين كانوا يتميزون بالبساطة الشديدة، فكانوا يُصدِّقون كل شيء بمنتهى السهولة وذلك لأنهم صادقين غير متكلفين في حياتهم. وكانوا يختلفون كليتا عن كل من تعاملت معهم في الجامعة من طلبة وزعماء سياسيين وصحفيين في جريدة الكتلة، ذلك الوسط العجيب الملوَّث الذي أحببته بل عشقته، فأعطاني حنكة سياسية ومقدرة على التحدث والحوار بلباقة مع قدرة هائلة على الإقناع والدبلوماسية مما يمكِّني من التألق في أي مجتمع، كما تعلمت فيه خوض الصراعات وتكسير العظام بثبات وقوة.

كان مجتمع الكنيسة الجديد سهل الاختراق حيث لا تنافس فيه ولا صراع، بل كل واحد منهم ينكر ذاته ويتباعد عن الظهور فوجدت نفسي دون أن أشعر أتألق بينهم كنجم بسرعة وسهولة. وبعد أن أخذت صبغة التدين والتحدث بلغة الإنجيل كما تعلمت الصلاة في الاجتماعات. ونبهوني لضرورة الاعتراف، كان معظم شباب الكنيسة يعترفون عند أبونا إقلاديوس بمصر القديمة أما أنا ففضلت أن أختار أب آخر هو أبونا يوسف الديري كاهن كنيسة شبرا البلد التي كانت بعيدة عن المباني في وسط الزراعات. وظل هو أب اعترافي حتى يوم دخولي للدير. بذلك لم يعد يصعب على دخول المجتمعات القبطية الأخرى، التي كانت من قبل نقطة ضعفي. لم أكتفي بكنيسة الأنبا أنطونيوس بل بدأت أدخل الكنائس الأخرى والقيام بالخدمة فيها.

اجتذبني نشاط ملجأ مدارس الأحد حيث كنت أعرف الأستاذ إدوارد بنيامين الذي كنت قد تقابلت معه عدة مرات في كنيسة الملاك ميخائيل بطوسون. كان بهذه الكنيسة أكبر نشاط لمدارس الأحد في مصر منذ

ثلاثينات القرن العشرين، وكان لها سمعة كبيرة في شبرا كأحد الأفرع الرائدة في الخدمة، إن لم تكن أنشط فروع مدارس الأحد جميعا. زرت الكنيسة عدة مرات عندما كنت أدعو لقيام حزب الشباب في مصر. الأستاذ إدوارد بنيامين رجل وقور ووديع قليل الكلام كثير العمل، ورغم أنه كان يكبر عني بنحو عشر سنوات وكان موظفا فقد كان شعلة من النشاط والعمل المستمر، يُكرِّس كل وقته لخدمة الكنيسة. جمع حوله مجموعة من طلبة الجامعة من أقوى الشباب في الروحانية والمستوى العلمي المتميز، منهم؛ الدكتور وديع عبد السيد الذي صار أستاذا للأمراض الباطنية بجامعة القاهرة وأشهر طبيب قلب في مصر، الدكتور إدوارد سرجيوس أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، الدكتور سعد زغلول والدكتور أديب عبد الله أستاذان بكلية العلوم قسم الرياضة البحتة جامعة القاهرة، الدكتور عدلي منقريوس والدكتور هنري الخولي الذي حصل على ليسانس آداب فلسفة بعد بكالوريوس الطب والدكتور سعد ثكلا الذي حصل على زمالة كلية الجراحين الملكية بإنجلترا، ... وآخرون كثيرون تنتهي القائمة الطويلة بنبيه تادرس وابن خالته رمزي عزوز (الأنبا يوأنس مطران الغربية فيما بعد) الذي ظهر مؤخرا.

كانت خدمة إدوارد بنامين متشعبة جدا فلم تقتصر على خدمة مدارس الأحد فقط بل كانت له خدمات في مجالات متعددة. من بين خدماته المتميزة خدمة الفقراء والأيتام، فكان يخدم الأيتام في منازلهم بالافتقاد ودعمهم بالمال والدواء. أشرك معه خدام مدارس الأحد، بل كان يشرك أطفال مدارس الأحد في زيارة الأيتام ليتعلموا محبة الفقير بشكل عملي منذ الصغر، وأيضا زيارة الأطفال للطفل الفقير في بيته تعني له الكثير. ولما تجمع لديه العدد الكبير من الحالات التي تحتاج لملجأ، قام بتأسيس ملجأ مدارس الأحد في عام 1942. ورغم أن ذلك كان أثناء الحرب العالمية الثانية حيث النقص الشديد في المواد الغذائية والتموينية مما يشكل تحدِّيا مستحيلا لقيام ذلك العمل، إلا أنه عمل المعجزات الكثيرة بصلابة وإيمان مع الصلاة التي كانت تبعث روح الإيمان في كل من حوله من الخدام. كان نجاحه المنقطع النظير في إنشاء الملجأ

الذي له صورة مغايرة تماما عن كل الملاجئ المعروفة مما يحفظ للأيتام كرامتهم وحريتهم ويعطيهم فرصة حتى التعليم الجامعي.

يوم لا أنساه عندما سمعت أن هناك مشكلة في كنيسة الملاك بطوسون ... القمص جرجس إبراهيم قام بنقل أبونا إسحق لإبعاده عن الكنسية حتى يقتصر الأمر عليه هو وعديله القس مرقص غالي. ذهبت لكنيسة الملاك في ذلك اليوم حيث كانت هناك ثورة دفاعا عن الأب اسحق، إذ كنت أبحث عن المشاكل وأوجد حيث توجد.. أحد الشباب- وكان طالبا بكلية الطب - عند مرور طبق جمع التبرعات قام بضربه فتبعثرت التبرعات على الأرض وحدث هرج غير عادي أعاق القداس، واستدعى الكاهن البوليس وقبض على ثلاثة من الشباب كنت من بينهم. ترتب على ذلك طرد مدارس الأحد من كنيسة الملاك بطوسون، مع أنه لم يكن هناك أي دور لخدام مدارس الأحد فيما حدث. اضطر الأستاذ إدوارد بنيامين لنقل خدمة مدارس الأحد إلى الملجأ حيث لا يوجد مكان مناسب لاجتماع كل الفصول معا في وقت واحد. فحدد لكل مدرس فصله في يوم يختلف عن الآخر حتى تستمر الخدمة، وقام الأستاذ إدوارد بنيامين بعمل جدول بمواعيد وأماكن الفصول حتى لا يحدث تعارضا بينها، ولكن الخدمة ضعفت وخمدت تدريجيا حتى انتهت خدمة أقوى فروع مدارس الأحد في مصر.

لم تغرب عن فكري أحداث ذلك اليوم مع كل لقاء بالأستاذ إدوارد بنيامين، لكن الرجل كان متسامحا ومحبا لأقصى درجة. كنت أشعر براحة شديدة عند الذهاب للملجأ. فكانت تنتابني مشاعر كثيرة، فأنا أيضا يتيم وليس لي بيتا حتى هذه اللحظة، أنا غريب عشت في الدنيا نزيلا في بيت أخي (الأنبا شنودة لم يملك أن يخفي دموعه مع تصفيق حاد) اليتيم الحقيقي هو من تموت أمه. في حالة موت الأب تقوم الأم بدور الأب والأم معا، لكن عند موت الأم لا يملك الأب أن يقوم بدورها. ومع شعوري بالغربة والإهمال الشديد في بيت أخي كنت أتردد على الملجأ كثيرا، إذ كانت تنتابني مشاعر لا يستطيع أحد أن يدركها وأنا بين أبناء الملجأ، فكنت أقدم كل الخدمات الممكنة بحماس شديد، وكان ذلك يسعد الأستاذ إدوارد بنيامين إذ يري محبتي وإشفاقي

على الأطفال الأيتام. كانت تضايقني اللافتة التي تقول ملجأ مدارس الأحد فإن كان ذلك ملجأ الذي تقدم فيه كل تلك الرعاية المدهشة فأين أنا أعيش؟... اقترحت على الأستاذ إدوارد تغير الاسم لبيت مدارس الأحد فأسعدته جدا فكرتي لكن لكثرة مشاغله ولكثرة المطبوعات باسم الملجأ وضرورة تغيير التسجيل لم يسارع في تغيير الاسم.

في شتاء عام 1947 قد يكون في شهر فبراير كنت أتردد على الملجأ كعادتي عندما دخل الفنان الرائع جان، كان طالبا بكلية الفنون الجميلة ومن شباب الكنيسة المحبوبين. كان يحمل صورة جميلة من رسمه، لم أكن رأيت في حياتي صورة مرسومة بالفحم بهذا الجمال والإتقان، فيها السيد المسيح وهو يطرد الباعة من الهيكل ومكتوب عليها مجلة مدارس الأحد وفي خلفية الصورة شعار مدارس الأحد يتكرر كوحدة زخرفية جميلة، وعليها عبارة "مجلة البعث الجديد"، موقعة باسم جيمي وميشو. مجلة جديدة يا أستاذ إدوارد؟ قلتها بلهفة وأنا لا أكاد أصدق نفسي... جاء الجواب بصوته الرزين... نعم مجلة جديدة ليست كالمجلات الدينية الكثيرة المنتشرة اليوم... بل مجلة لها طابعها الخاص، البعث الجديد من أجل الإصلاح والتغيير. يا لها من فكرة رائعة... وهل يمكن لي أن أكتب فيها؟.... أجاب الأستاذ إدوارد، طبعا إذا كانت كتاباتك تتفق مع أهداف المجلة... قلت له أنا لا أكتب إلا الشعر... فقال لي أحضر شعرك ونشوف. وصدر العدد الأول من المجلة في أبريل 1947 وبه شعر نظير جيد بعنوان "إن أبواب الجحيم سوف لا تقوى عليك". النجاح المنقطع النظير لتلك المجلة أشعرني أنه نجاح لي وعوضني كثيرا عن الكآبة التي كانت تتملكني كلما تذكرت ما حدث لي مع جريدة الكتلة. في نفس الوقت شعرت بمسئولية جسيمة، فأنا في حاجة كبيرة لأن أثقف نفسي بالثقافة الدينية التي كنت أجهلها تماما في ذلك الوقت حتى أستطيع أن استمر كاتبا بهذه المجلة التي يكتب بها الكثير من الموهوبين والعلماء بعلوم الكنيسة وقوانينها التي لا أعرف عنها شيءً.

حتى الآن لم أكن قد تخرجت بعد، حين انفتحت لي آفاقا جديدة في المجال الديني بعد أن انغلق المجال السياسي أمامي بشكل لم أكن أعمل حسابه، وأنا في غمرة نشوتي بحب الزعامة. ومن خلال المجلة وملجأ

مدارس الأحد بدأت أتعرف على أهم الشخصيات بالمجتمع القبطي مما كان يفتح أمامي الفرصة تلو الأخرى.

في نفس العام 1947 تم افتتاح القسم المسائي بالكلية الإكليريكية لخريجي الجامعة. لم أكن قد تخرجت بعد، لكن شعري المنشور في المجلة شفع لي عند الأستاذ وهيب عطاالله (وكيل الكلية الإكليريكية وفيما بعد الدكتور وهيب – الأنبا غريغوريوس) الذي كان كاتبا في المجلة، فقبلني كطالب في الكلية الإكليريكية القسم المسائي بشرط التخرج من الجامعة في نفس السنة. لم أهتم في حياتي بالدراسة مثل اهتمامي الشديد بالدراسة في الكلية الإكليريكية مما أسعد الدكتور وهيب الذي احتضنني إلى أن تخرجت في عام 1949، وكنت الأول على الدفعة لأول مرة في حياتي، فعينت معيدا بالكلية. وهنا تمكنت من المعرفة الدينية بالقدر الذي ساعدني على الكتابة في المجلة بكل ثقة. وجودي في الكلية الإكليريكية بجوار الأستاذ وهيب أتاح لي فرصة التعرف على الكتب التي كانت متوفرة بالكلية مما شجعني على القراءة حتى أثقف نفسي دينيا. صرت مدرسا في الكلية للعهد الجديد مما كان دافعا لدراسة الكتاب المقدس بل وبدأت بحفظ أجزاء منه عن ظهر قلب مما كان له أثر قوي في الوعظ والتعليم بالإضافة لمواهبي في الإلقاء والعرض التي صُقِلَت في مظاهرات الجامعة. كما كنت قارئا للأدب فكنت أحب كتابات جبران خليل وميخائيل نعيمة وشعر إيليا أبو ماضي. فبدأت كتاباتي في المجلة تكون مؤثرة كما تشعبت خدمتي في فروع كثيرة لمدارس الأحد والوعظ في الجمعيات الدينية المختلفة.

الأستاذ إدوارد بنيامين مع كل خدماته الضخمة كان يشعر بعمق أنه لم يكرِّس كل حياته بعد لخدمة المسيح الذي أحبه بشدة. ومع ارتباطه بخدمة ضخمة، هي خدمة مدارس الأحد، وخدمة الفقراء بما في ذلك الملجأ، وخدمة المجلة التي صارت على يديه أوسع المجلات القبطية انتشارا وأكثرها أثرا على المجتمع في مصر. كل تلك المسئوليات الكبيرة كانت تعطله من قبول العروض التي كانت تتيح له الخدمة في أفريقيا، مع أنه كان يشتهي العمل الكرازي. في يوم عُرِض عليه الذهاب للتدريس في الحبشة (أثيوبيا كما كانت تعرف في تلك الأيام)

في كلية الثالوث القدوس اللاهوتية بأديس أبابا، وكان مترددا للذهاب بسبب مسئولياته الضخمة.

خدمة مدارس الأحد كان يقوم بها خدام ممتازين جدا اختارهم الأستاذ إدوارد بكل حكمة وعناية، وهم يعتمدون على أنفسهم. وبعد نقل الخدمة للملجأ كان من الصعب على الأستاذ إدوارد متابعته للخدمة، كما كان يحمل لكل الخدام ثقته الكاملة، فلم يكن يتدخل كثيرا في خدمتهم.

أما المجلة وقد أينعت بكُتَّابها المتميزين في كل المجالات وكان عددهم كبير من كل أفرع مدارس الأحد بمصر، وصارت لها آثارا ضخمة وحضورا وتأثيرا واضحا في المجتمع القبطي، فلم يكن يشغله أو يؤرقه كثيرا سير العمل بالمجلة في حالة لو تركها.

أما الملجأ فكانت تربطه بالأولاد رابطة قوية كما كان قد عوَّدهم على نظام حياتي وتربوي دقيق في النوم والصحيان والدراسة واللعب والرياضة والأكل وكل شيء، لذلك كان ارتباطه بأولاد الملجأ هو الأمر الذي يمنعه من أن يترك خدماته بمصر. فما رتبه من نظام تربوي دقيق يشرف عليه بنفسه، واختار خدام الأطفال بعناية فائقة ليقدموا خدمة المحبة. لذلك فهو لا يريد أن يُسلِّم العمل لأي شخص حتى لا يهمل أو يغير ما رتبه من نظام، يحقق للأطفال تربية صحيحة، ومستقبل علمي وروحي متميز. وكان قد بدأ ظهور ثمار خدمته تتألق في مواهب متعددة ومتميزة لأبناء الملجأ من مواهب إبداعية فنية وفكرية ورياضية وتفوق علمي. لذلك كان ما يشغله هو تسليم الملجأ لشخص تابع النظام التربوي لأولاد الملجأ الذي أرساه من الأول، ومقتنعا به، ويلزم أن يكون ذلك الشخص عطوفا محبا للأولاد. كانت هذه فرصتي الذهبية لما كان الأستاذ إدوارد يلمس مدى اهتمامي بالأولاد الأيتام ومحبتي لخدمتهم منذ وقت طويل. وما أن عرضت عليه استعدادي للقيام بهذا الدور حتى وافق في الحال، لا أن يسلمني الملجأ فقط بل وكل مسئولياته؛ الملجأ، والمجلة، وخدمة مدارس الأحد. ولما كان الأستاذ حافظ داود يتعجله في السفر للحبشة لبدء السنة الدراسية فقد فاجأ الكل بأن أعلن تسليم كل مسئولياته لي، وأعد كل شيء وغادر

مصر في أكتوبر عام 1949، فأصبحت الوريث لكل زخم خدماته الغنية المتعددة، بكل ثقل ثمرها الذي حققه بالجهاد والسهر والبذل.

أنا شخصيا كنت مذهولا لتلك الثقة التي لم أتوقعها. وكما سبق ولاحظت أن هؤلاء المتدينين الذين قابلتهم في كنيسة الأنبا أنطونيوس ثم في ملجأ مدارس الأحد يتميزون بصورة من براءة الطفولة حتى أنهم يصدقون كل ما تقوله بلا تردد لأنهم لا يكذبون، فمن السهل جدا أن تستحوذ على ثقتهم بقليل من السياسة والدهاء. والأكثر من ذلك أن الأستاذ إدوارد وأمثاله لم يكن يعنيهم المجد الشخصي لما حققوا يقدر ما يعنيهم الخدمة نفسها واستمرار نجاحها فلم يهتم ولم يفكر للحظة أن كل هذا العمل الكبير والنجاح الذي حققه بالسهر والجهد والبذل المتفاني من وقته بل ومن ماله الخاص ومن مستقبله، كل ذلك يسلمه لي ببساطة دون تردد، لأصبح أنا فوق قمة ذلك العمل. لقد نسي الأستاذ إدوارد نفسه تماما في تفانيه ومحبته لنجاح العمل، لا ليحقق ذاتيته والإيجو الشخصي بقدر تحقيق الهدف. وبذلك وجدت نفسي أبدأ من فوق أعلى السلم غير محتاج لمتاعب البدايات الأولى، وعليَّ أن أضيف لذلك العلو الشاهق الذي بدأت منه.

هنا بدأت مرحلة جديدة في حياتي؛

(4) نظير جيد رئيس التحرير

بعد تخرجي من الكلية لم أجد عملا حيث كان تقدير التخرج مقبول، فلم يمكن قبولي للعمل بالمدارس الأميرية. أما العمل بالمدارس الأهلية والليلية فلم تكن هناك حاجة لمدرس تاريخ حيث لم يكن هناك احتياج لدروس خصوصية في تلك المادة، مع نظام النجاح بالتعويض، فكان يندر الرسوب في تلك المواد. لذلك تعذر لي الحصول على وظيفة، ورغم احتياجي الشديد للعمل، على الأقل أمام أخي روفائيل وعائلته.

وضعي في المجلة أتاح لي فرصة التعرف على الكثير من الشخصيات العامة والهامة، أحد تلك الشخصيات توسط لي للعمل في المدرسة الإنجليزية "English School" بمصر الجديدة لتدريس اللغة العربية يومين في الأسبوع، فقبلت العمل بدون تردد، كما وجدت بعد ذلك بعض الأعمال المؤقتة بالمدارس الأهلية بشبرا. وجاء تعييني بالكلية الإكليريكية بعد تخرجي عام 1949 فخفف من حدة المشكلة. وبعد جهد ومساعدات كثيرة من صانعي الخير حصلت بعد ذلك على وظيفة مدرس للتاريخ في مدرسة القبة الثانوية. لم يكن عملي يشغلني كثيرا بقدر طموحاتي الغامرة نحو الزعامة التي كانت تتعدى كثيرا العمل الوظيفي المحدود بالحكومة، وكنت أجد في المجلة والصحافة وسيلة هامة لتحقيق ذاتي وأهدافي البعيدة، كما أنها تشبع حاجة في نفسي للعمل تحت الأضواء والتعرف على مشاهير وكبار المجتمع القبطي.

كان يربطني ببيت أخي، والد مريض تجاوز التسعين من عمره متهالك الصحة، لكن ما كان يحزنني فعلا أولاد أخي البعيدين عن الكنيسة خصوصا أكبر أولاده عادل، إذ كان يتردد على المسامع كل أنواع الشتائم، خاصة عند لعب الكرة الشراب بفريق حسن باشا حلمي الذي كان يتزعمه. كان الكلام عن ربنا في البيت أمر يثير التهكم والسخرية، ولست أتعجب فأنا نفسي كنت شريكا في ذلك. لم يكن من بين الخمسة من يهتم بالحياة الروحية سوى واحدة من البنات التي بدأت تحب الذهاب للكنيسة. أما عماد فكان الوحيد بينهم الذي يهتم بدراسته فدخل كلية الهندسة إلا أنه لم يكن يختلف روحيا كثيرا عن إخوته.

لم يتغير شعوري بالغربة في بيت أخي حتى آخر يوم، فبعد تخرجي قمت بعمل سكنا منفصلا لي بحجرة الصالون. كان بالحجرة باب يؤدي للشارع عن طريق سلالم وطرقة جانبية تؤدي لبوابة على الشارع. قمت بفصل حوالي متر واحد بعرض حجرة الجلوس بقاطوع خشبي ووضعت فيه سرير ومكتب، وبذلك صرت منفصلا تماما عن البيت، أخرج وأدخل من الباب الجانبي فلا يشعر بي أحد. وفيما بعد عندما بدأت التفكير في الرهبنة كان كل من يزورني يتصور أن تلك الحياة الانعزالية هي نوع من الزهد والعزلة الرهبانية وسمي سكني بالقلاية.

ودعت الأستاذ إدوارد بنيامين مع كل أسرة الملجأ والمجلة، وبدأت أجمع شتات نفسي لأحدد خطتي المستقبلية. أول عمل قمت به هو تغيير اسم ملجأ مدارس الأحد لبيت مدارس الأحد، مما لاقى ترحيبا من الكل. بدأت اشعر أنه لا يمكني الاستمرار في الحفاظ على النظام الدقيق مع أولاد الملجأ، فلم يكن لدي لا الوقت ولا الصبر لمتابعته. تغير كل شيء في الملجأ بسرعة وصارت الأمور تسير على سجيتها دون كثير من الجهد والمتابعة. الأستاذ إدوارد كان يخصص للأولاد ملابس للرياضة، وللكشافة، وللعب، وللنوم، ملابس مختلفة لكل نشاط ووقت، فلم يعد هناك وقت لأهتم بمثل هذه الأمور. ارتباط الأولاد بالأستاذ إدوارد جعل بيني وبينهم نوع من الجفاء رغم كل علاقاتي القديمة بهم، ولم يكن عندي وقت لعلاجه، فلجأت للحزم والشدة مما زاد الجفاء بيني وبين بعضهم مما أدى إلى مغادرة بعض الأولاد الكبار للملجأ. أما خدمة مدارس الأحد فكان كل خادم يهتم بفصله وكلهم خدام أقدم مني في الخدمة وأكثر مني علما فلم يكن لي إشراف حقيقي عليهم. بدأت بعض الفصول تغلق بسبب انتقال الخادم للعمل والسفر. فصل الأستاذ رمزي عزوز (الأنبا يؤانس) وحده بدأ ينمو ويقدم أنشطة جديدة.

كانت المجلة وحدها هي أكثر ما يشغلني ويستحوذ كل اهتمامي وتفكيري. الأستاذ مسعد صادق رئيس تحرير المجلة وعضو نقابة الصحفيين كان يرأس تحرير أكثر من مجلة قبطية إلى جانب عمله الصحفي الأصلي، حيث كانت القوانين تحتِّم ضرورة أن يكون رئيس التحرير صحفي نقابي حتى تصدر أي مجلة في مصر. بينما كان

الأستاذ إدوارد بنيامين هو المدير الفعلي للمجلة ومعه مجموعة فريدة من الكتاب. بعد ثورة 1952 قبض على الأستاذ مسعد صادق بسبب مقالات نشرها في إحدى المجلات واعتبرت ضد الثورة، في نفس الوقت تغير القانون فلم يعد من الضروري أن يكون رئيس التحرير صحفي نقابي، وبذلك صرت بلا منافس رئيسا لتحرير مجلة مدارس الأحد التي كانت تعتبر أشهر وأهم مجلة قبطية في مصر. كُتَّاب المجلة كانوا من صفوة المجتمع القبطي ومثقفيه، ولهم خبرات طويلة في الكتابة أكثر مني، لكن كان عليَّ أن أقود العمل وأثبت وجودي. عشرات الكُتَّاب من كل فروع مدارس الأحد من القاهرة والجيزة والأقاليم. وكان هناك علماء كبار وأساتذة جامعة مثل العالم العظيم الدكتور عزيز سوريال عطية، و الأستاذ يسى عبد المسيح مدير المتحف القبطي. وبعض من أعضاء المجلس الملي الذين يشجعون المجلة.

كل ذلك وضعني بشكل فجائي فوق ملتقى كشافات الضوء الساطع بالمجتمع القبطي الذي كان في ذلك الوقت يذخر بالعمالقة في كل مجال. ونتيجة لمركزي الجديد صرت عضوا في اللجنة العليا لمدارس الأحد. تقابلت مع الأرشدياكون حبيب جرجس، في زيارة أثناء مرضه الأخير وهو على فراش الموت مع أستاذي وهيب عطا الله. وتزايدت شهرتي وصلاتي الأمر الذي كان يسعدني ويزيد ثقتي في نفسي. لم تقف خدمتي عند الملجأ والمجلة بل صار لي فصول خدمة بفروع متعددة لمدارس الأحد بشبرا بكنيسة الملاك بطوسون وكنيسة العذراء بروض الفرج وجمعية النهضة الروحية بشارع فؤاد التي كانت تخدم كنيسة العذراء بمسرة. وكنت أشارك في اجتماعات بكنيسة ماري مينا بشبرا وكنيسة ماري جرجس بجزيرة بدران ثم اتسعت خدماتي جدا لإلقاء المحاضرات بكنيسة البطرسية ومار مرقس بمصر الجديدة وكنت أدعى للوعظ بالأقاليم كل ذلك إلى جانب فصل الخدمة بكنيسة الأنبا أنطونيوس.

مجلة مدارس الأحد كانت المصدر الرئيسي لكل تلك الشهرة العريضة التي أحرزتها في زمن وجيز. كان الموضوع الرئيسي الذي قامت عليه المجلة هو الإصلاح الكنسي، وكان النقد بل والهجاء هو أكثر ما أجيد

الكتابة فيه شعرا ونثرا، وبعد أن تمرست على الكتابة تمكنت من صياغة مقالاتي بأسلوب ديني إصلاحي مؤثر جدا. فبدأت كتاباتي الهجومية ضد البطريرك وحاشيته والأساقفة والكهنة. كما هاجمت المجلس الملي، ونقدت كل ما وقعت عليه عيناي في الكنيسة بأسلوبي المؤثر. أيضا بدأت في مهاجمة ما ليس أرثوذكسي بل ما ليس قبطي. صار لكتاباتي دوي هائل خصوصا في مهاجمة البطريرك مما حقق لي شهرة عريضة في زمن قياسي. وكما سبق وذكرت أنه عقب الحرب العالمية الثانية كان هناك شعور ثوري عام جارف مع دعوة للإصلاح، ليس فقط في المجال الديني بل في جميع المجالات، بل وكان اتجاها عالميا. فكان طابع العصر هو الكتابة عن الإصلاح بشكل ثوري، وحيث برعت في ذلك النوع من الكتابة النقدية حققت شهرة عريضة.

كثيرون كانوا ينتظرون المجلة لمتابعة مقالاتي الثورية مما شجعني على التمادي في ذلك المجال. ومع هذا الإعجاب بكتاباتي النقدية، لم يعترض عليها أحد لا على المستوى الكنسي ولا على المستوى الشعبي، فحتى الأنبا يوساب نفسه لم يوجه لي ولا مرة واحدة اللوم أو العتاب، بالرغم من كل ما كتبته ضده، مع ما كان له من أثر خطير عليه في الرأي العام القبطي. وكان من بين المعجبين بكتاباتي بعض المطارنة خصوصا كتاباتي ضد المجلس الملي، كل ذلك شجعني على التمادي. ورغم وجود الكثير من الأمور المُشرقة في عصر الأنبا يوساب من الإنجازات الضخمة، خصوصا في مجال التعليم وإصلاح الأديرة، إلا أنه كان هناك مجالين للهجوم عليه، الأول أنه كان يحمل رتبة الأسقفية عند ترشيحه للبطريركية، إذ كان مطرانا لجرجا. الأمر الثاني موضوع خادمه الذي كان يأخذ رشاوي نظير خدماته الكنسية. وللحقيقة كانت الرشوة موجودة دائما كجزء من أي مجتمع وستكون، إلا أنه في تلك الفترة الثورية كانت الأضواء تسلَّط على أقل خطأ مما ضخَّم الأمور فبَعُدت عن الواقع.

من الأحداث التي كان لها دوي كبير مشكلة مطران الجيزة. عقب نياحة الأنبا إبرآم مطران الفيوم والجيزة عام 1948، حين قرر الأنبا يوساب رسامة القمص متياس الأنطوني (سكرتير البابا) لمطرانية الجيزة. بينما

رشحت مدارس أحد الجيزة الأستاذ حبيب جرجس لذلك المنصب، وحاول شباب مدارس الأحد أن يفرضوه على البابا بالقوة. كان المتنيح الأرشدياكون حبيب جرجس عظيما لكن سنه وحالته الصحية لم تكن تسمح له بالقيام بمهام ومتطلبات المنصب الصعب. وفعلا تنيح حبيب جرجس بعد أقل من عامين من تلك الأحداث بعد أن قضى في فراش المرض أشهر طويلة. بالرغم من أن القمص متياس الأنطوني كان سكرتيرا للبابا وبالرغم من أنه كانت هناك قوي سياسية تساند ترشيحه للمنصب ومنهم الأستاذ عزيز مشرقي المحامي المشهور، وعضو البرلمان الوفدي، ومن ذوي النفوذ السياسي القوي في ذلك الزمان، إلا أن مدارس أحد الجيزة أطلقت الشائعات حول الرشوة التي تلقاها تلميذ البابا المدعو ملك ليتم ترشيح القمص متياس لمنصب المطران، الأمر الغير معقول، حيث أن المرشح هو سكرتير البابا نفسه. فأثير موضوع السيمونية (أي الرشوة) بشكل ضخم حتى أن مجلة مدارس الأحد أصدرت عددا خاصا عن ذلك في فبراير عام 1949، متعاطفة مع ضغوط وصيحات شباب مدارس أحد الجيزة غير المنطقية، وتعاطفا غير واقعيا مع الأرشدياكون حبيب جرجس الذي لم يطلب ذلك.

كانت المظاهرات تعم مصر في تلك الفترة الثورية من التاريخ التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية مرورا بحرب فلسطين في عام 1948 حتى بلغت ذروة التظاهرات في عام 1952 حين قام الجيش بالثورة. أخبار المظاهرات كانت تأجج في نفسي حنين قديم، وكانت أحداث اختيار مطران الجيزة فرصة لأقدم مواهبي في التظاهر لمدارس أحد الجيزة، الذين رحبوا بالفكرة جدا، حيث كان لهم مبادئ مغايرة تماما للمبادئ التقليدية لمدارس الأحد، خاصة كنيسة الأنبا أنطونيوس أو مدرسة الأستاذ إدوارد بنيامين. وفعلا قمت بعمل كل التدابير للقيام بمظاهرة ضد الأنبا يوساب. تقرر أن تقوم المظاهرة من كنيسة الأنبا أنطونيوس بشبرا، التي كانت أقرب كنيسة لبيتي، حتى يسهل نقل اللافتات الكبيرة التي أعددتها لذلك.

إلى جوار مدارس أحد الجيزة دعي للمظاهرة أفرع مختلفة لمدارس الأحد، مثل كنيسة مار جرجس بجزيرة بدران وملجأ مدارس الأحد،

وكنيستي الملاك والعذراء بطوسون، ومار مينا، وكنيسة البطرسية بالعباسية... لم تكن كنيسة الأنبا أنطونيوس، لا الكهنة ولا مدارس الأحد ليوافقوا على ذلك العمل الذي يعتبرونه خطية كبرى، ففي يوم المظاهرة بعد قداس يوم الجمعة اجتمعنا أمام باب الكنيسة، وعندما حاولت دعوة شباب كنيسة الأنبا أنطونيوس للاشتراك في المظاهرة قام أحد الخدام اسمه فوزي حنين (فيما بعد أبونا كيرلس حنين بكنيسة عين شمس) بحملي على ذراعيه وألقي بي خارج الكنيسة إذ كان ضخم الجسم بينما كنت صغير الحجم (عند احتفال كنيسة الأنبا انطونيوس برسامتي أسقفا للتعليم مِلت على أذن الأستاذ فوزي وقلت له، هل تستطيع الآن أن تحملني كما فعلت يوم المظاهرة فضحك وضحكت). تحركت المظاهرة بعد أن حملوني على الأكتاف، وصرت أردد الهتافات البديعة ذات النغم الشعري التي أعددتها بإتقان وكان الكل يردد الهتافات خلفي، مما أعاد لي مشاعر البهجة وشعور الإشباع النفسي والريادة القديمة التي كنت قد افتقدتها جدا منذ تخرجي، وكان خدام الكنيسة المشهورين يتبادلون حملي على أكتافهم حتى بلغنا الدار البطريركية بشارع كلوت بك، فعلت هتافاتنا وزاد حماسنا. رغم أن المظاهرة لم تحقق أهدافها فقد تم رسامة المطران ضد رغبة مدارس الأحد تأييدا للنخبة السياسية الوفدية، إلا أنها رَسِّخت الغضب الشعبي ضد البابا، بإشاعة الفساد والرشوة، مما كانت له آثار غاية في الخطورة، انتهت بعزل البابا من كرسيه. كان يوم المظاهرة يوما لا ينسى بالنسبة لي، لكن كان علىَّ أن أقدم حسابا عن تلك التصرفات المرفوضة تماما سواء لخدام كنيسة الأنبا أنطونيوس بشبرا أو للأستاذ إدوارد بنيامين، ولكن اللطف الشديد لهؤلاء الناس والطيبة النادرة والنفوس الشفافة شفعت لي، ومع أسلوبي الدبلوماسي اللبق أمكن للأزمة أن تعبر دون مشاكل.

في الواقع لم يكن لي صلة شخصية بالأب البطريرك الأنبا يوساب فقد كانت كل علاقاتي به هو ما اقرأه عنه في المجلة من الكُتَّاب، وما كنت أسمعه مما كان يشعل حماسي فأعيد الكتابة بأسلوبي النقدي المميز. عرفت أن الباب كان مطرانا لجرجا أي حاصل على درجة الأسقفية قبل رسامته بطريركا للكرازة المرقسية، إذ كان قد انساق وراء وكيل

المجلس الملي، الدكتور إبراهيم فهمي المنياوي باشا، أستاذ ورئيس قسم الجراحة بكلية الطب، والذي كانت له مبادئ متطرفة جدا، كما كانت له شهرة ضخمة وسطوة سياسية واسعة مع العنف، وحب بالغ للسيطرة والزعامة. الدكتور المنياوي كان قد سبق وأصر علي اختيار المتنيح الأنبا مكاريوس للكرسي البطريركي والذي كان مطرانا لأسيوط، مما كان سببا في استقالة حبيب باشا المصري وكيل المجلس الملي الأسبق، الذي كان يتمسك بالقانون الكنسي بكل إصرار. كان الصراع بين المنياوي باشا وحبيب باشا المصري عنيفا، وقدم حبيب باشا في ذلك الدراسات المقنعة جدا كرجل قانون ضليع، ونشر الكثير من المقالات في المجلات القبطية وفي مجلة مدارس الأحد بالذات يدافع عن القانون الكنسي، ويشيد بحكمته البالغة ومحافظة الكنيسة القبطية على إتّباعه.

وبالرغم من فشل المنياوي باشا الذريع في السيطرة على البابا الأنبا مكاريوس حيث دارت بينهما صراعات كبيرة انتهت بأن اعتزل البابا في الدير. وشعر البابا بالخطأ الكبير الذي ارتكبه بكسره للقانون الكنسي، بانسياقه وراء الدكتور المنياوي. وكان الشعور بالذنب يلاحق الأنبا مكاريوس منذ تجليسه بطريركا بالمخالفة للقانون الكنسي، فكان يطلب بإلحاح من الله أن يريحه من عذاب الضمير بأن ينقله من هذا العالم. وفعلا لم يمضي سوى عام ونصف على اعتلاء الكرسي البطريركي حين تنيح البابا تاركا المنصب. وكان هناك شعورا عاما ببن الشعب بأن كل المشاكل الكنسية سببها كسر القانون الكنسي باختيار بطريركا كان يحمل درجة الأسقفية. ورغم كل ذلك لم يرتدع الدكتور المنياوي لفعلته البغيضة وأصر على تكرار الخطأ هذه المرة مع الأنبا يوساب مطران جرجا. ورغم تحذير الكل للأنبا يوساب إلا أن المنصب أغراه فانصاع وراء المنياوي باشا الذي دبر كل شيء لترشيحه وعمل له الدعاية اللازمة، ولم يكن خافيا أن هدف المنياوي هو السيطرة على الكنيسة من خلال اختياره للبطريرك. وكان الشعب متحمسا لترشيح راهبا مشهورا بالقداسة أمام الأنبا يوساب هو أبونا داود المقاري الذي كان محاميا. ولظروف غير طبيعية يوم الانتخابات إذ تساقطت أمطار غزيرة جدا، كما كان هناك إضراب لعمال النقل العام، حيث توقفت خطوط الترام والمترو والأتوبيس في القاهرة كلها في يوم الانتخاب.

فقام الدكتور المنياوي بسرعة بتجهيز أتوبيسات لنقل الناخبين المؤيدين للأنبا يوساب فقط، فحصل على أكثر الأصوات. (في ذلك الوقت لم تكن بدعة القرعة الهيكلية ظهرت).

لم يكن لي معرفة حقيقية بالأب البطريرك فقد كانت كل علاقاتي به هو ما اقرأه عنه في المجلة من الكُتَّاب، وما كنت أسمعه مما كان يشعل حماسي فأعيد الكتابة بأسلوبي النقدي الحماسي المميز. كان أستاذي وهيب عطاالله يتكلم عن البابا باحترام شديد وتوقير، بالرغم من اختلافه معه فيما يخص مخالفاته للقانون الكنسي. وكان ما يسعد الأستاذ وهيب هو اهتمام البابا الشديد بالتعليم والإكليريكية وخدمة مدارس الأحد. وما أسعده جدا هو النجاح الذي حققه البابا في بناء مبنى جديد على أحدث طراز معماري لمدرسة الإكليريكية في أرض الأنبا رويس.

كانت أرض الأنبا رويس مدافن للأقباط وبعد الحرب العالمية الثانية قررت الحكومة سرا الاستيلاء عليها لموقعها الهام بشارع الملكة نازلي، إلا أن حبيب باشا المصري الذي اكتشف نوايا الحكومة بذل جهودا ضخمة جدا استطاع أن يحتفظ بالأرض ملكا للكنيسة بشرط نقل المقابر للجبل الأحمر. مع الإسراع الشديد في عمل المشاريع العمرانية بالأرض قبل أن تستول عليها الحكومة. اجتمع المجلس الملي برئاسة المنياوي باشا حيث اقترح عمل مشاريع مختلفة مثل مستشفى ومدرسة وغير ذلك من مباني الخدمات. أما الأنبا يوساب الذي كان يهتم بالتعليم الديني فأصر علي إنشاء كلية لاهوتية ضخمة تليق بكنيسة الإسكندرية. لكنه وجد معارضة شديدة من المجلس الملي. وبعد صراعات كبيرة نجح البابا في فرض رأيه فكلف المهندسين بسرعة تصميم المبنى والبدء في البناء فورا. وفعلا تم كل شيء بسرعة فائقة. ولم يرتاح البابا إلا عندما بدأ العمل في البناء ليضمن عدم استيلاء الحكومة على الأرض. واكتمل المبنى بسرعة فائقة، وظهر كتحفة معمارية وكان يعتبر من أجمل وأضخم مباني ذلك الوقت. واجتمع المجلس الملي بعد أن رأى المبنى الجميل، فاستكثر المبنى على الإكليريكية فقرر المجلس بالإجماع استخدام المبنى كمدرسة قبطية على مستوى رفيع لأطفال

العائلات القبطية الموسرة بمصاريف باهظة. وبدءوا في اتخاذ خطوات إيجابية لتحويل المبنى لمدرسة أطفال وأبلغوا البابا بقرارهم الذي لا رجعة فيها.

قام الأنبا يوساب بسرعة بالاتصال بالإكليريكية بمهمشة وأصدر أوامره المشددة بأن يتم نقل محتويات الإكليريكية فورا للمبنى الجديد على أن يبيت طلبة الإكليريكية في نفس اليوم بداخل المبنى الجديد حتى يفرض على المجلس الملي الأمر الواقع ويقطع عليهم خط الرجعة. في ذلك الوقت كنت قد عينت معيدا بالإكليريكية وكنت أحدث مدرسا بها، فكلفت بهذه المهمة الصعبة المطلوب تنفيذها فورا بأمر البابا أنا وأبونا صليب سوريال. لأول مرة أشعر بأن البابا سلطة كبرى، بينما أنا مجرد معيد مبتدئ صغير أنفذ الأوامر منصاعا ولا حتى أملك المناقشة. ولأول مرة أتعجب من نفسي كيف لي هذه الجرأة لأهاجم البابا بكل هذه القوة في مقالاتي بالمجلة وأنا مجرد موظف صغير جدا أعمل عنده. وبسرعة اقتحم ذهني بشكل لم أملك مقاومته صورة مكرم عبيد باشا وهو يقرر طردي من جريدة الكتلة، مع أني لم أهاجمه بشعري بل كنت أهاجم أعداءه. إلا أنه لم يمهلني للحظة ولم يعطيني حتى الفرصة لمقابلته. لقد أفزعني هذا الفكر جدا فانتابتني مشاعر غريبة ممتزجة بين الخوف والتعجب والتأمل. هل المتدينين الأقباط طيبين جدا لهذه الدرجة؟! إذن لماذا أهاجم البابا؟!!! لا.. لا.. لا بد من مهاجمته... إنه واجب ديني... فقد كسر القانون الكنسي وبالذات قوانين مجمع نيقيا.!!!

كان علي الإسراع في تنفيذ الأوامر وكان الوقت ضيق جدا لم يكن هناك من وسيلة متوفرة في ذلك الوقت، لنقل محتويات المبنى من الدكك والمناضد ودواليب وأسرة الطلبة المتواضعة جدا سوى أن أنقلهم على عربة كارو. أسرعت باستئجار العربة وقام الطلبة مع الفراشين بتحميلهما بالعفش تحت إشرافي. وكان علي أن أرافق العربة من مهمشة إلى مبنى الأنبا رويس الجديد بالعباسية. كان الجو حار لا يطاق في وقت العصر وبدأت أقطع تلك المسافة مرافقا للعربة التي يجرها بغل عجوز يتحرك ببطء شديد، لمسافة طويلة تستغرق على أقل تقدير

ساعتين!!! إنها أوامر البابا واجبة التنفيذ دون تأخير. بدأت الرحلة البطيئة مع سائق العربة الذي يوجه البغل بأساليب مُنفِّرة وكلام بذيء. لا يوجد أي مجال للحديث معه. أخذتني حالة من الوجوم والاستغراق في فكر عميق لم أستطع أن أمنع فيه نفسي من التفكير المستمر في سلطة الباب التي تضعني في هذا الموقف البغيض الذي أشعرني بمنتهى المهانة والازدراء.

لم نكد نصل للمبنى حتى وجدنا الطلبة سبقونا إليه بالمواصلات. فقاموا بنقل العفش القليل الحقير للمبنى الفخم الضخم فلم تشغل فيه سوى حجرات قليلة. وبعد أن تأكدت بنفسي أن الطلبة سوف يبيتون ليلتهم بالمبنى الجديد، كما قمت بتدبير لهم طعام العشاء حسب الإمكانيات المتاحة. وكان علي أن أبلغ بتنفيذ المهمة بنفسي قبل أن عدت للمنزل وأنا في حالة من الإرهاق الجسدي والنفسي والفكري لم تتيح لي الاستغراق في نوم هادئ عميق تلك الليلة.

(5) مدارس أحد الجيزة والصراع السياسي الكنسي

قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث... أعترف اليوم أمامك أنا نظير جيد أنه لم يغب عن ذاكرتي لحظة واحدة حلم الزعامة وحلم الكرسي الذي أنت تجلس عليه اليوم، خاصة بعد أن وجدت نفسي بدون إرادة مني، ودون أن أبذل جهدا، المسئول عن تحرير أهم وأشهر مجلة قبطية في مصر. وكانت مقالاتي يهتز لها المجتمع القبطي كله خاصة الشباب المثقف، حين كنت أهاجم البطريرك بكل قوة تحت شعار الإصلاح وباسم القانون الكنسي، بينما كنت حديث العهد بمعرفتي بالقانون الكنسي الذي قرأت عنه لأول مرة في المجلة التي كنت رئيسا لتحريرها. فكنت أعرف أني أخطو خطوات ثابتة نحو الهدف الذي لم يكن يشاركني فيه سوى قيادات مدارس أحد الجيزة، التي كانت تختلف في مبادئها عن الفكر الروحي، والهدف التربوي لمدارس الأحد بحسب ما أرساه الأرشدياكون حبيب جرجس.

كنت أبذل قصارى جهدي للوصول لذلك الهدف، حين أقنعت نفسي أنه هدفا نبيلا، فعلى الأقل عندما أتبوأ ذلك المنصب الرفيع وبلوغ الكرسي البطريركي ستتمكن قيادات مدارس الأحد - التي كنت أجلها - من تحقيق الأهداف الإصلاحية عن طريقي. ولذلك كنت أجاهد من أجل تحقيق أهدافي الشخصية التي اعتبرتها في ذلك الوقت ضمن خطة الإصلاح الكنسي الشامل بالعودة للكنيسة إلى أزهى عصورها فأعيد احترام القانون الكنسي والعودة بالأرثوذكسية إلى روحانيتها التي تعرفت عليها بين صفوف شباب مدارس الأحد. كان يشاركني تلك الأفكار خدام مدارس احد الجيزة وحدهم، فكانوا يمثلون المنافس الأوحد لأهدافي وتطلعاتي. وبينما كانوا يشكلون مجتمعا منظما متكاملا كنت أنا وحدي مع مجتمع قراء المجلة.

تعتبر مدارس أحد الجيزة مرحلة جديدة من التطور في مبادئ مدارس الأحد، وتمثل علامة فارقة ذات آثار عميقة، شكلت الفترة التاريخية اللاحقة للمجتمع القبطي مع كل صراعاته العنيفة. وكان لتفاعلي مع

أسلوبهم الثوري الأثر الذي غيَّر الكثير من المفاهيم السائدة في الكنيسة القبطية منذ القدم والتي دفعت بقوة نحو الهدف "الأنبا شنودة بطريركا."

لقد حققت مدارس أحد الجيزة وجودها المؤثر جدا على المجتمع القبطي بشكل قَبِلَته وشجَّعَته حتى الرئاسات الكنسية. وبينما لم تكن المبادئ الأساسيةَ لمدارس الأحد تسمح بأي تطلعات سياسية ولا لفكر الزعامة أو السيطرة على الكنيسة، كان ذلك الفكر يترسخ في خلفية مبادئ مدارس أحد الجيزة وحدها، ويسيطر على كل تفكير قادتها في كل تحركاتهم. كانت أول خطوة عملية نحو تحقيق تلك الأهداف السلطوية هو ما سمي بحركة التكريس التي بدأت في منتصف أربعينات القرن العشرين. في ذلك الوقت ظهر شعار "من فراش الكنيسة إلى البطريرك من مدارس أحد الجيزة". معنى ذلك أنه بدأ بشكل رسمي مُعلَن التخطيط للسيطرة على المناصب الكنسية العليا. حدث ذلك بشكل مُمَنهَج ومُنظَّم ومُغلَّف بشعارات البذل والتضحية من أجل الخدمة الدينية والروحية، مما حاز على قبول وتشجيع الجميع. كنت أراقب كل ذلك أنا نظير بوعي مُتفهِّم للأهداف السياسية وراء النشاط الرائع لخدمة مدارس أحد الجيزة. لم أكن لأستطيع الاندماج فيهم لوجود الكثير من الزعماء الأقوياء جدا الذين يقودون العمل الروحي والتثقيفي مع العمل الكنسي السياسي منذ زمن بعيد، بينما أنا حديث العهد في الخدمة الكنسية. في نفس الوقت، لم أكن أملك أن أقف موقف المعادي أو المعارض لهم حيث كانوا يحوزون على تأييد شعبي لعملهم الرائع جدا في مجال الخدمة الكنسية. في نفس الوقت لم أكن أستطيع أن أقف موقف المؤيد للعمل السياسي حيث أشعر بخبراتي وأعرف أنه أكبر عقبة أمام تطلعاتي نحو المناصب الكنسية. فوقفت من كل ذلك موقف المراقب الحَذِر، مع تحين الفُرَص لشجب تطلعاتهم السلطوية من وقت لآخر. كان يشجعني في ذلك موقف كنيسة الأنبا أنطونيوس المعارض بشدة للمنهج الاجتماعي السياسي لمدارس أحد الجيزة، فكنت أحتمي وراء تلك المعارضة لأسدد هجومي ضد الجيزة.

قيام مدارس الأحد في مصر كان مرتبطا وملتزما بالحراك الوطني الذي واكب ثورة سنة 1919، فبقدر ما كان الهدف هو البعث الجديد للفكر الكنسي القبطي، بقدر ما كان مرتبطا بالانتماء القومي الوطني لمصر، وكان هذا هو الموقف القبطي بشكل دائم عبر التاريخ. الاحتلال البريطاني اتخذ موقفا شديد العداء من الكنيسة القبطية بشكل سافر، حتى من قبل احتلال مصر بقوات عسكرية. محمد علي باشا كان يشجع الأجانب، خاصة بعد أن بدأ في إقامة المصانع الحربية، وأحضر الكثير من الأجانب لمساعدته في التصنيع، فكان يرى فيهم صورة من التحضر الذي ينشده لمصر، فشجع تواجدهم حيث بدأ النفوذ الأجنبي الأوربي في الازدياد في المجتمع المصري خاصة النفوذ البريطاني والفرنسي، اللذان تغلغلا بتشجيع الحكام من أسرة محمد على. ودفعت كل من أمريكا وبريطانيا وفرنسا بالإرساليات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية التي كانت تحارب الكنيسة القبطية بشكل سافر وعنيف خاصة في الصعيد. واتخذ الصراع شكلا صداميا عنيفا في زمن البابا كيرلس الرابع حيث قام البريطانيون بالوقيعة بين سعيد باشا والبابا من ناحية وبين البابا وإمبراطور أثيوبيا من ناحية أخرى. وختمت كل تلك المؤامرات بمقتل البطريرك الذي تم حقنه بالسم بتدبير طبيب إنجلترا. وبعد الاحتلال البريطاني لمصر شجعوا التطرف الإسلامي الذي ختم بقيام جماعة الإخوان المسلمين. لكل ذلك كانت الرئاسة الكنسية تؤيد الحركات الوطنية، فأيد البابا كيرلس الخامس عرابي ثم سعد زغلول. لذلك اتسمت حركة مدارس الأحد بالمشاركة الوطنية. كان لمدارس أحد الجيزة توجها أيديولوجيا ذات اتجاه يميني اتسم بالتعصب الديني والجفاء مع السلطة، فكانوا أكثر تحررا من فروع مدارس الأحد الأخرى. وكانوا ينشدون الإصلاح الكنسي بشكل ثوري مع الحماس الشديد والغيرة والعمل الباذل الجاد، لكنه يتسم بالتعصب والاندفاع وإثارة المشاعر بشكل عاطفي شعاراتي. كنت أشارك مدارس أحد الجيزة في اتجاههم اليميني فكنت أشعر بالإعجاب الشديد بالسياسة البريطانية وبراعتهم ومقدرتهم السياسية الفائقة التي مكَنتهم من تحقيق الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، وكم تخيلت نفسي وأنا أحكم تلك الإمبراطورية حيث لم تكن لطموحاتي حدود.

ظريف عبد الله الطالب بكلية الهندسة الذي كان ينتمي في البداية لكنيسة الأنبا أنطونيوس بشبرا، لكنه اختلف معهم حيث كان يخالفهم في الرأي وفي كل شيء، فكانت له تطلعات ثورية. وبعد أن أبعد عن كنيسة الأنبا أنطونيوس قام بإنشاء مدارس أحد الجيزة في أواخر ثلاثينات القرن العشرين. الجيزة مرتبطة بجامعة فؤاد الأول، وهي الجامعة الوحيدة بمصر في ذلك الوقت، فكانت مصدرا هائلا للطاقة البشرية التي دعَّمت مدارس أحد الجيزة بخبرات ثقافية ومعرفية متعددة، فظهر منهم الكتَّاب المرموقين. الجيزة قريبة من مصر القديمة بكنائسها الأثرية مما أعطى الخدمة طابعا كلاسيكيا ارتبط بالتقليد القبطي القديم، بمذاق عاطفي وطبيعة جاذبة. كل ذلك نتج عنه نهضة كبرى لمجتمع قوي متعدد الأنشطة والمواهب. الخط الفكري لمدارس أحد الجيزة رسمته شخصيات بقدر حماسهم الثوري وإخلاصهم لمبادئهم كانت لهم تطلعات شخصية نحو القيادة والسلطة، وذلك صب فيما يعرف بحركة التكريس. بدأ التكريس في منتصف الأربعينات برسامة المهندس ظريف عبد الله كاهنا بدمنهور باسم القمص بولس بولس، أعقب ذلك رسامة الأستاذ وهيب زكي سوريال المحامي باسم القمص صليب سوريال بالجيزة. تم رسامة أبونا أنطونيوس أمين بالفيوم حيث أحدث مشاكل وصراعات كثيرة انتهت بنقله لكنيسة ماري مرقس بمصر الجديدة فأحرز موقعا استراتيجيا هاما لحساب الجيزة. وحتى تتحقق الأهداف السلطوية كان لا بد من دخول بعض قيادات مدارس أحد الجيزة الرهبنة. المحامي الشاب سعد عزيز الخادم بمدارس أحد الجيزة الذي كان يشتعل نشاطا حتى أنه سافر للخدمة والتدريس بأديس أبابا، وعند عودته ترهب بدير السريان باسم الراهب مكاري في عام 1948 وبذلك صار مرشح الجيزة الأول للكرسي البطريركي.

أبونا مكاري السرياني شخصية هادئة جدا ورزينة ذو صوت خفيض، وهو مثقف وقارئ ممتاز بلغات متعددة، يأسرك حديثة اللطيف وعلمه الغزير وثقته المفرطة في النفس التي تشعرك بأنك أمام شخصية فريدة وعظيمة. وبالرغم من أنه ترهب بدير السريان حيث الأنبا ثيئوفيلوس رئيس الدير يؤمن بالرهبنة الديرية المتشددة، فهو ينبذ تماما فكرة

خروج الراهب من الدير، إلا أن أبونا مكاري استطاع أن يقنعه بأسلوبه الدبلوماسي الفريد أنه راهب مكرس للخدمة خارج الدير، مما يُظهِر الكارزمة الطاغية للراهب مكاري حتى أنه يستطيع أن يقنع أي إنسان بما يريد بيسر وسهولة مع الاحتفاظ بالود مع الجميع. وكان لسفر الأب مكاري السرياني للولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد، وحصوله على الماجستير في الاجتماع من واحدة من أكبر الجامعات الأمريكية، بقدر ما صقل مواهبه المتعددة بقدر ما أضاف لشهرته وصلاته الكثير.

تقابلت مع الأب مكاري مرات كثيرة في مجالات الخدمة المتعددة منذ عام 1948 فلم يكن خافي عليَّ تطلعاته السلطوية نحو الكرسي البطريركي. كنا دائمي الحوار والشجار، لكن بشكل يقبله الجميع مع احتفاظ دبلوماسي بشكل المحبة الذي اتسم به خدام مدارس الأحد.

أبونا مينا المتوحد أنشأ مساكن لطلبة الجامعة المغتربين بجوار كنيسة مار مينا بمصر القديمة، وكانت مدارس أحد الجيزة تخدم هؤلاء الطلبة مما استدعى تردد الأب مكاري عليهم والذي كانت تربطه علاقة حميمة بأبونا مينا من قبل الرهبنة، فكان أبونا مينا المتوحد يجل الراهب مكاري ويُوقِّره جدا أكثر من الجميع. نتج عن ذلك فكرة قيام جمعية ميناء الخلاص التي كان يرأسها شكلا أبونا مينا المتوحد وفعلا الأب مكاري السرياني. تقوم فكرة الجمعية على لقاء الشخصيات القيادية للشباب للدراسة والتدبير لقيام مشاريع مستقبلية لتنمية الخدمة في مدراس الأحد بشكل مستمر. كان بيت الطلبة فرصة لتحقيق ذلك اللقاء الأسبوعي يوم الخميس حين يسافر الطلبة المغتربين لعائلاتهم فتكون الغُرَف شاغرة فيمكن استخدامها لنوم الخدام الذين يقضون الليلة في عرض وتخطيط المشاريع الخاصة بتنمية الخدمة مع الصلاة. كانت تلك اللقاءات تجمع الكثير من قيادات مدارس الأحد ليس فقط من الجيزة بل كل العقليات المفكرة المقربين من الأب مكاري السرياني. بالرغم من اختلافي معه إلا أني كنت أحرص على حضور تلك الاجتماعات رغم أني لم أكن من المرغوب فيهم. في ذلك الوقت كنت أحرص جدا على التواجد في جميع الأنشطة الكنسية والمجالات الثقافية

والاجتماعية في المجتمع القبطي لسببين أولا حتى أكون معروفا ومشهورا في كل المجالات، وثانيا كصحفي للتعرف على مشاكل المجتمع القبطي والمداخل والمؤثرات الدينية عليه والتي قد أحتاج إليها في تحقيق أهدافي السلطوية. كان اجتماع جمعية ميناء الخلاص له أهمية خاصة بل يعتبر مدرسة لي تتفتح فيها الأفكار حيث ألتقي بعقليات قيادية ضخمة لها مواهب نادرة. الأب مكاري نفسه يعتبر شخصية قيادية نادرة له رؤية بعيدة ومقدرة فذة على التخطيط والتدبير، لا شك أني تعلمت منه الكثير مع اختلافي المستمر معه، حيث كنا وحدنا نتفهم بعض جيدا، ويدور بيننا الصراع والحوار كلاما وصمتا.

مشروع الخدمة القروية كان واحدا من المشاريع الهامة الناجحة الذي نتج عن اجتماعات جمعية ميناء الخلاص. فكرة المشروع جميلة جدا وهو تقديم الخدمة الروحية والدينية والاجتماعية للمحرومين بالقرية، حيث كان هناك الكثير من الأقباط مقطوعين الصلة تماما عن الكنيسة، فهناك الكثير جدا من القرى التي لا توجد بها كنائس، ولا تعلم عنهم الكنيسة الأم أي شيء. كانت الفكرة تتلخص في استغلال وقت فراغ الطلبة في المرحلة الثانوية والجامعية خصوصا في الأجازات الصيفية لإرسالهم للقرية للافتقاد والتعرف على المشاكل الأسرية والاجتماعية للقرية. ومعهم بعض الهدايا الرمزية من كتب مقدسة وصور للأطفال. والقيام بالتعليم الروحي وتعريفهم بالكتاب المقدس. وفي حالة وجود مشاكل أكبر يمكن تبليغها لأقرب كاهن ليقوم بزيارة الأسر المحتاجة.

بدأت الخدمة القروية في عام 1951 من كنيسة مار جرجس بجزيرة بدران حيث أعداد الشباب في شبرا كبيرة. وعمل لها دعاية كبيرة في جميع أفرع مدارس الأحد. وبدأت بتقديم الخدمة في ثلاث محافظات منها الجيزة والقليوبية الفكرة لاقت نجاحا كبيرا بالرغم من السلبيات الكثيرة في التطبيق. وجد الشباب القبطي مجالا في الخدمة لاستغلال وقت الفراغ في عمل مفيد يعطيهم الكثير من الإشباع الروحي والنفسي، بقدر ما حققت خدمة للقرى المعزولة وربطتها بالمجتمع القبطي بشكل جيد. الجانب السلبي للمشروع هو عدم تدريب الخدام على تلك الخدمة، بينما هم حديثي السن وبلا خبرة مما يعرضهم

للمشاكل. وامتد المشرع لخارج الجيزة فشمل الكثير من الإبراشيات حتى بلغ لكثير من محافظات الوجه البحري والقبلي تحت إشراف مدارس أحد الجيزة. كان ذلك المد مقترنا بشكل ما بفكرة السيطرة على الكنيسة مما كان يشعرني بالقلق، فقد كان لهذا التحرك أهدافا أخرى دعائية وسلطوية أكثر من الخدمة نفسها، التي كانت ضعيفة الأثر بسبب ضعف الخدام. فكان الهدف المختفي من تلك الخدمة هو تحقيق الامتداد والتشعب لمدارس احد الجيزة، لتحقيق شكل من أشكال التسلط على الكثير من أبراشيات الكنيسة القبطية.

كان لمدارس أحد الجيزة اتجاها نقديا عنيفا ضد الرئاسات الكنسية خصوصا البطريرك وحاشيته ورجال الإكليروس بشكل عام، في الوقت الذي كانت الرئاسة الكنسية تشعر بضعفها أمام إمكانياتهم الكبيرة. كان من أهم أهداف الجيزة هو استبدال الكهنوت القديم بخريجي الجامعات المنتمين لمدارس أحد الجيزة. وكان في هجومهم الكثير من التجني لتحقيق أهداف سياسية بحتة بقصد السيطرة. فلا شك أنه كان هناك الكثير من رجال الإكليروس المثقفين بالثقافة الدينية الروحية التي للكنيسة القبطية العريقة، فكان منهم الوعاظ والخطباء المفوهين، كما كان هناك الكثير من الشخصيات العامة المختبرة المحنكة من الناحية الروحية والمعرفية، خاصة بعد النهضة الروحية الضخمة التي قام بها حبيب جرجس في أوائل القرن العشرين. لكن مدارس أحد الجيزة التي كانت هيئة جيدة التنظيم وقوية، تتعمد تجاهل وجود أي نشاط إيجابي في الكنيسة غير ما تقوم به مدارس أحد الجيزة، و كانت تنتقد كل شيء بعنف. وكنت أنا نظير أشاركهم ذلك الاتجاه كما ظهر في المقالات الثورية العنيفة التي نشرتها مجلة مدارس الأحد في ذلك الوقت، سواء بقلمي أو بأقلام آخرين، كما اتضح ذلك الاتجاه في المظاهرة التي قمت بترتيبها ضد الأنبا يوساب في شوارع القاهرة والتي لم أكن أستطيع تنفيذها لولا تشجيع الجيزة لي، بينما كان الفكر التقليدي لمدارس الأحد يرفض تماما مثل تلك التصرفات. ولم يكن تعاوني مع الجيزة بسبب اتفاق الهدف إلا ليزيد اختلافي الواضح مع أبونا مكاري الذي كنت أشعر أنه منافس قوي لي يسانده مجتمعا

متكاملا، بينما أنا وحدي قد أحوز على تأييد مجموعة من المثاليين، بينما يمكن أن أفقد تأييدهم وقت الحاجة بسبب تمسكهم بالقيم والمبادئ. فكنت في أشد الحاجة لسند قوي.

حركة التكريس لمدارس احد الجيزة كانت بمثابة انتقال مدارس الأحد من الهواية إلى الاحتراف، ومن الخدمة الباذلة إلى الصراع السياسي. كان إدوارد بنيامين يمثل مدارس الأحد في مرحلة قمة البذل والعطاء لأهداف نبيلة حتى انه نسي مستقبله تماما وهو منساق في خدمة الفقراء والأيتام، وخدمة التعليم، وخدمة المجلة التي قامت للدفاع عن مبادئ سامية رفيعة، ونشر المعرفة الدينية والروحية، والدفاع عن القانون الكنسي، وبحق كانت مجلة البعث الجديد، التي تعرض مبادئ حبيب جرجس. في هذا الخضم وزحمة العمل نسى إدوارد أن يفكر في الزواج أو يقيم بيتا، حتى الأربعينات من عمره، فكان يبذل من ماله الخاص حيث كان ميسور الحال، فنسى مستقبله ونفسه في زحمة عمله التطوعي، الذي كان يستغرق كل لحظة من حياته دون توقف أو أجازة. كان فعلا إنسان فريد. الأمر كان مختلفا تماما في مدارس أحد الجيزة حيث كان قد بدأ التخطيط بل والعمل الجاد نحو السبطرة على المناصب الكنسية، كان ذلك تحت مسمى ديني جميل وهو "حركة التكريس" فكانت موضع تقدير واحترام وتشجيع الجميع، بل كانت مثار انبهار الكثير من الشخصيات العامة والكنسية على السواء. أبونا مينا المتوحد الذي كان أب اعتراف للكثير من خدام الجيزة كان داعما ومنبهرا بنشاط مدارس أحد الجيزة. كان الأب مكاري يحمل عقلية سياسية مخططة خطيرة حتى أن كتاب Lonely Minority الذي صدر بالولايات المتحدة عن الأقباط وصفه بأنه Great Tactician Man أي أنه كان رجل تخطيط تكتيكي عظيم .

وبقدر اختلافي معهم علنا كنت أشاركهم الكثير من أهدافهم سرا. فكانوا منافسون لي في نفس الأهداف، فمع هذا الاختلاف لم أكن أستطيع أن أخفي إعجابي بتنظيمهم ووحدتهم في العمل الجاد نحو تحقيق الهدف في وقت كانت روح الانقسام تغلب على العمل القبطي.

(6) اللقاء الأول مع الآب متى المسكين

كانت فكرة الذهاب للدير تخيفني رغم أني كنت أعرف تماما أن الطريق الوحيد لبلوغ المناصب الكنسية الرفيعة يبدأ بتلك الخطوة الأولى الضرورية، وهي الذهاب للدير. وفي ذلك الوقت كانت من المحاذير الأساسية للرهبنة ضرورة إخفاء أي رغبة في التطلع للمناصب الكنسية تماما، حتى لا تفقد الاحترام داخل المجتمع الكنسي، ففي ذلك الوقت كان التطلع للمناصب الكنسية بالنسبة للراهب يُعتبر خطية كبرى لا يمكن أن تُنسى أو تمحى من تاريخ الراهب، وهي كافية لضياع سمعته تماما. كل ذلك كان يزيد من إعجابي وتعجبي بالذكاء المفرط لحافظ نجيب المحامي المسلم المغامر، الذي وجد طريقه داخل الدير وتدرج بمنتهى الصبر في رتب الكهنوت القبطي وأجاد ألحان الكنيسة وأجاد تمثيل الدور حتى كاد أن يصل لرتبة المطران. رغم درايتي بكل ذلك فلم أتجاسر على زيارة الدير، بينما كان هناك حولي الكثيرون من شباب وخدام كنيسة الأنبا أنطونيوس يزورون الأديرة بانتظام، حيث كانوا يتطلعون إلى حياة النسك والتقشف بشكل مُفرِط، وكانوا على دراية بالطرق الصحراوية الشاقة للأديرة عندما كانت الرحلة للأديرة مغامرة تأخذ ساعات طويلة قد تتطلب البيات في الطريق مع استخدام قطار الدلتا البطيء للخطاطبة ثم مواصلات نادرة وصعبة، مع ضرورة المسير لساعات طويلة في قلب الصحراء مما يحتاج إلى دليل. ربما سبب آخر لم يشجعني على زيارة الأديرة هو انشغالي المستمر بسبب مسئولياتي التي تضخمت جدا في ذلك الوقت.

سَرَت همهمة بين محبي زيارة الأديرة من خدام كنيسة الأنبا أنطونيوس تؤكد أنه قد وصل إلى دير السريان راهب شاب قديس اسمه الأب متىَّ المسكين، الذي أحضره الأنبا ثيئوفيلوس عام 1951 من دير الأنبا صموئيل بحيلة، لِما سمعه عنه من قداسة وعلم، فأراد أن يثري الدير بالطاقات العملاقة لذلك الراهب. كان قد سبق قبله الراهب مكاري من مدارس أحد الجيزة الترهب في هذا الدير. أُعطى الأسقف الراهب الجديد اسم متىَّ المسكين للتفريق بينه وبين راهب آخر بالدير يحمل اسم متىَّ. وقالوا أن أبونا متىَّ شخصية روحية نادرة تثير الإعجاب

وكان خريج كلية الصيدلة. عقب سماع تلك الأخبار تحرك الكثير من الخدام لتنظيم رحلة لزيارة دير السريان بوادي النطرون. وعندما دُعيت للذهاب معهم، ترددت في الأول ولكن بعد تفكير وجدت أنها فرصة للتعرف على حياة الأديرة في وسط مجموعة من الشباب الطيب وكذلك التعرف على اتجاهات الراهب الجديد الذي سمعت أنه كان من شباب مدارس أحد الجيزة، حيث كنت على صدام دائم معهم. كان صداما سياسيا مغلفا بشكل المحبة الضرورية للخدام، فهم زملاء خدمة، والكثير منهم كُتَّاب في المجلة التي أرأس تحريرها، وعملي في المجلة كان يلزمني بشكل التدين والقداسة. رغم كل ما قيل لي عن الأب متى المسكين لم أكن أتوقع أن أرى فيه إلا صورة من الراهب مكاري السرياني الباحث عن المناصب الكنسية بشكل حذر ومخفي بكل حكمة، تلك الأمور التي لا يفهمها أو يدركها شباب مدارس الأحد الطيبين، لكني كنت أدركها بخبرتي القديمة في عالم السياسة والأحزاب.

كانت الرحلة لدير السريان مُرهقة للغاية لم أكن في يوم من الأيام أتصور أن أقوم بتلك المغامرة. فحتى أثناء التدريب في كلية الضباط الاحتياط لم أتعرض لمثل تلك الرحلة الشاقة والمثيرة. لكن ما كدنا نصل إلى الدير القابع في وسط الرمال على شكل سفينة ونبلغ إلى الباب ونشد حبل الجرس لنسمع رنات صوته الرخيم حتى سرت في نفسي قشعريرة مع مشاعر من الروعة لا يمكن وصفها. لقد جللت رهبة المكان مع الهدوء والسكينة العجيبة مع أصوات الرياح الخفيفة التي كانت تعزف لحنا كونيا قدسيا بديعا يُسبِّح مع جمال الطبيعة خالقها المبدع، بالصوت والصورة. لم تكن هذه هي أول خبراتي بحياة الصحراء فقد كنت قد عركتها قبلا في التدريب العسكري بكلية الضباط الاحتياط. ولأول مرة شعرت بروعة الصحراء عندما كان يجمعنا فوق التبة في الغروب زميل التدريب بالكلية الأخ توفيق مرقس، وكان يقرأ لنا فصلا من الكتاب المقدس ثم يختم بصلاة الغروب. وكما ذكرت أنه لأول مرة بدأت أتذوق المشاعر الدينية التي كنت أنفر منها تماما قبلا. الصحراء كانت تعيد لي تلك الذكريات الجميلة إلا أن الرحلة إلى الدير وما رافقها من مشاعر فاقت كل مشاعر سابقة بما لا يقاس.

جلسنا على المصطبة بمدخل الدير في انتظار السماح لنا بالدخول. جاء من خلف البابا الحديدي السميك صوت أجش عميق، بعمق الفيافي التي اجتزناها يسأل "مين بيخبط". إنه الراهب البواب الذي فتح لنا باب الدير العتيق، ثم استقبلنا في بشاشة ولطف مع محبة نادرة. كان الراهب كفيف ومع ذلك كان يعرف طريقه ويعمل بكل مهارة كبواب للدير. وقادنا راهب آخر لقصر الضيافة حيث كان الأسقف رئيس الدير ينتظرنا واستقبلنا بحفاوة وترحاب بالغين. لم تمض بضع دقائق حتى حضر أحد الرهبان يحمل إناءاً به ماء ساخن وجلس على الأرض يطلب أن نخلع الأحذية ليقوم بغسل أقدامنا!!! شعرت بغاية الحرج ورفضت بشدة، إلا إنه لم يتنازل عن طلبه حتى استسلمت في استحياء شديد فتركت له قدمَي ليغسلهما بالماء الساخن بعد رحلة مرهقة، مما أعطاني انتعاشا لم أشعر به قبلا في حياتي. ثم قُدِم لنا الطعام فجلسنا نأكل على المائدة مع أسقف الدير الوديع الذي لم يكف عن تحيتنا بعبارات روحية آسرة، بينما قام راهب بقراءة فصل من بستان الرهبان. بعد أن تناولنا الطعام، الذي شعرت أنه كان أشهى طعاما تناولته في حياتي، قضينا ليلة روحية لا تنسي تحوطها الأسرار بحجرات الزوار الثلاث بقصر الضيافة. لقد شعرت تماما بسر ذلك الترقب البهيج لشباب الأنبا انطونيوس عند الإعداد لتلك الرحلة.

التقيت بالأب متىَّ المسكين لأول مرة، ذلك اللقاء الذي رسمت له في خيالي الكثير من التصورات، فإذ بالواقع يختلف تماما عن كل ما يمكن تصوره. المكان وسحره وروعة الطبيعة الخلابة للمشاعر الممزوجة بعمق روحي لا يماثلها أي مشاعر عرفتها قبلا، كل ذلك لعب دورا هاما في مقابلتي للرجل. كنت أتوقع ألا يكون ذلك الراهب ذو السمعة الطيبة، التي انتشرت في المحيط الديني في مصر كلها إلا أن يكون له شكلا مثيلا للطابع الخاص بمدارس أحد الجيزة، مثل الراهب مكاري السرياني، حيث أن الاثنين من نفس المدرسة. من خلال رئاسة تحرير المجلة تعاملت مع عشرات الشخصيات من مدارس أحد الجيزة وجميعهم مطبوعين بنفس الأيديولوجية السياسية المختلفة تماما عن الفكر الأصيل لمدارس الأحد كما عرفته بكنائس شبرا.

استقبلنا الرجل ببشاشة ومحبة غير متكلفة مما يشعر بالثقة والارتياح، وذلك شجعني على الاسترسال معه في أحاديث طويلة، في شتى الأمور الكنسية. والتطلع نحو بعث جديد بحسب تعبير الأستاذ إدوارد بنيامين الذي صار شعارا للمجلة. الرجل مبهر بذكاء متوقد وحديثه الشيِّق الذي لا يملك أحد أن يمنع نفسه من الشعور بالإعجاب الشديد، كما شعرت بصدق مقاصد الرجل ذو العقلية المتسعة والثقافة العالية والعلم الغزير في مجالات شتى، مما يفرض عليك احترامه، بل والإصغاء الكامل في حضرته. وبقدر ما وثقت فيه بقدر ما بادلني تلك الثقة بسرعة مما أعطاني انطباعا أنه لا يمت بصلة للأيديولوجية السياسية السائدة في مدارس أحد الجيزة. شعرت أنه رجل مبادئ لا يحيد عنها فيفصل تماما ما بين الرهبنة والخدمة ويرفض تماما الرتب الكهنوتية للراهب. سمعت من الرهبان عن مقاومته الشديدة عند محاولة رسامته قسا، الأمر الذي دبره أسقف الدير بحيلة، بيمنا كان هو يرفض، عن إيمان عميق بالفكر الرهباني الأصيل بحسب ما رسمه آباء الكنيسة.

مع أن تلك الزيارة كانت هي الأولى في حياتي للأديرة إلا أني وجدت نفسي وقد انساقت بسرعة ويسر وراء فكرة الرهبنة. صارحت الآب متى المسكين بتطلعي نحو الرهبنة بشرط أن أكون تلميذا له. رحب بي الرجل جدا وبدأ يطلعني على أسرار الحياة الرهبانية ويعاملني كتلميذ له بحب ونفس منفتحة. لقد سبق لي التلمذة على يد الأستاذ وهيب عطاالله وكيل الكلية الإكليريكية والذي قاد خطاي الأولى للتعرف على الدراسات المسيحية والكنسية، وهو الذي اختارني للتدريس معه بالكلية. والآن أنا أمام أستاذ جديد اشعر أني في أشد الحاجة لعلمه ليخطو بي أولى خطواتي في طريق الرهبنة الذي كنت أتهيبه جدا حتى التقيت بالرجل المناسب. وشعرت أن حاجز الخوف من الرهبنة قد بدا يتبدد باللقاء معه ، وأن مصيري الرهباني بدأ يتحدد بشكل واضح.

أمر آخر تغير فيَّ بالذهاب للدير فقد تغير مفهومي للتدين نفسه كما تغيرت فكرتي عن الرهبنة تماما. لقد كنت قد أحببت المتدينين جدا لِما لمسته فيهم من صدق وأمانة وبساطة شديدة فما أسهل أن تتعامل في وسط طيب يَصدُق فيه الجميع ويُصدِّقوك بلا أي شك. لقد كان أول

تلامسي مع التدين فوق التبة في صحراء ألماظة عندما كان يجمعنا الأخ توفيق مرقص للصلاة، في معسكر الضباط الاحتياط. كم كان لتلك اللحظات أثرا شديدا في حياتي. وكم تذكرت لحظات روحية سعيدة نادرة مع الأستاذ إدوارد بنيامين، لكن كل ذلك لم يتعدى أثره فيَّ أكثر من ذكريات سعيدة لم تغير في نفسي وطبيعتي الكثير، فمثلا لم أتردد في القيام بمظاهرة ضد البطريرك الأنبا يوساب عندما سنحت لي الفرصة. رحلة الدير واللقاء مع الأب متى المسكين أحدثت أثرا غائرا في نفسي لأول مرة. إني أقر بالحقيقة لقد أصبحت فعلا أحب الله والصلاة وأصبحت متدينا بل منحازا للدين بشكل قوي. أما فكرتي عن الرهبنة وحياة الصحراء فلم يكسر ذلك اللقاء حاجز الخوف من الرهبنة فقط بل بدأت أحبها وأعشقها، ثم بدأت تدريجيا أقنع نفسي بأنها الحياة التي تناسبني. ثم قمت بزيارات متعددة للأديرة الأخرى فزاد تعلقي بالرهبنة، وفي كل مرة أجد نفسي مشدودا لتلك الحياة البهجة بقوة.

عدت من تلك الرحلة في أقصى حالات الانفعال الروحي وكان لذلك أثرا واضحا على تغيير نمط تعاملاتي، وكتاباتي في المجلة. فبعد العودة من الدير كتبت في مجلة مدارس الأحد أول مقال بعنوان "وددت لو بقيت هناك". وبدأت لأول مرة أكتب مقالات ذات عمق روحي، مثل مقالاتي تحت عنوان "انطلاق الروح". والتي كانت تلخص حواراتي الروحية مع الأب متى المسكين، وذكرت أن الحديث مع أبي الراهب.

أثرت تلك الزيارة كثيرا على علاقاتي مع مدارس أحد الجيزة خاصة مع أبونا مكاري السرياني الذي بدأت أهاجمه علنا بعد أن فهمت الكثير من قوانين الرهبنة فأدركت تماما أن وجود الراهب خارج الدير بشكل مستمر تحت شعار الخدمة والتكريس أمر خاطئ جدا ومخالف تماما لمبادئ الرهبنة. بدأ جدلنا المستمر في هذه الأمور يتحول لشكل من الصراع العلني. وأدرك أبونا مكاري أن وراء ذلك الجدل المحتدم تقف صورة الأب متى المسكين، مع أن هذا الموضوع لم يطرح ولا مرة مع أبونا متى، لكن التزام أبونا متى بالقانون الرهباني بكل دقة كان بالضرورة يثير التساؤل حول مسلك أبونا مكاري الراهب معه في نفس الدير. وبعد أن تذوقت الحياة الرهبانية وعشقتها لم يكن جدلي إلا عن

قناعة واختبار شخصي مع أني لم أكن قد ترهبت بعد. كانت تلك الحوارات تزيدني أكثر من قناعتي وتعلقي بالرهبنة.

بدأت أتردد على الأديرة دون مهابة لكني كنت أحرص أن أقضي أطول وقت ممكن في دير السريان حيث ألتقي بالأب متى المسكين ونتبادل أحاديث روحية ممتعة. ولأول مرة قضيت أسبوع الآلام والعيد في الدير بين الرهبان فكان أمتع أيام عمري. إنه شعور بالجمال لا يمكن وصفه إلا لمن جربه. ولأني كنت أعيش في بيت أخي فلم أكن مرتبط كثيرا ببيت يلزمني قضاء العيد معهم خصوصا أن جو الصخب بعيدا عن روح العبادة بدأ يضايقني جدا، فبدأت أقضي الأعياد في الدير خصوصا عيد القيامة البهيج بتسابيحه الجميلة. كل ذلك كان يقربني جدا من الرهبنة التي كانت تمثل مشروع تطلعاتي القديمة التي كنت أخشاها جدا لكني أصبحت متيما به. ومع ترددي على الأديرة بدأت دائرة خدماتي الدينية تتسع جدا لتشمل فروع متعددة لمدارس الأحد والوعظ والمحاضرات التي كنت أدعى إليها في القاهرة وخارجها. وأصبح لي نفوذا وكلمتا مسموعة كعضو في اللجنة العليا لمدارس الأحد خصوصا بعد سفر الأستاذ وهيب عطاالله إلى إنجلترا لدراسة الدكتوراه. وبعد ذلك سافر أيضا أبونا مكاري لأمريكا وقرر الاستمرار لدراسة الماجستير.

في إحدى زياراتي للدير، على ما أذكر كان في عام 1953، أطلعني أبونا متى على كتاب جديد قد أعده وهو "كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية". الكتاب يعتمد على أقوال الآباء عن الصلاة في نواحي شتى، جمَّعها أبونا متىَّ من العديد من كتابات الآباء وقام بتقسيمها وتبويبها في فصول، كما قام بالتقديم لكل موضوع بأسلوبه الجديدة في الكتابة. كان الكتاب يمثل بعثا جديدا للكتاب القبطي ويحمل أسلوبا جريءً غير مألوف. لم أكن أنا الشخص الوحيد الذي أطلعه أبونا متى على تسويدة الكتاب قبل طباعته، بل أشرك الكثير من صفوة المثقفين والعلماء الكنسيين، في مراجعة أول كتاب له حتى يطمئن على تقبل المجتمع القبطي لهذا الأسلوب الجديد من الكتابة. الأستاذ وهيب عطاالله كانت له بعض الملاحظات التي اختلف مع أبونا متى حولها. كما

أشترك أبونا مكاري السرياني في المساعدة والمراجعة. ولما عرضت على أبونا متى المساعدة كلفني بمراجعة ملخص تاريخ الآباء بالملحق الأخير من الكتاب، فقمت بهذه المهمة، ثم اقترحت علي أبونا كتابة مقدمة للكتاب فوافق على ذلك بتلقائية وسهولة أعادت لذاكرتي المواقف البريئة للأستاذ إدوارد بنيامين في تسليمي كل تعب عمله بدون تفكير. كان أبونا قد قرر أن يصدر الكتاب بدون اسم مؤلف حيث أنه راهب، واعتبر أن ذلك يمنعه من وضع اسمه على الكتاب حتى لا يضعه تحت أضواء الشهرة. فصدر الكتاب وبدلا من اسم المؤلف وضعت عبارة تقول، "جمع وترجمة وتعليق دير السريان". وفي الصفحة الأولي من الكتاب كانت المقدمة التي كتبتها مذيلة باسم "نظير جيد" وبذلك صدر الكتاب الشهير الذي ذاع صيته في أرجاء الأرض وليس عليه سوى اسم واحد هو اسمي. كان ذلك بمثابة دفعة جديدة تضيف لشعبيتي وتقربني من حلم البلوغ للسلطة الذي رسمته لنفسي منذ زمن بعيد.

كل تلك الإنجازات التي حققتها بمهارة فائقة بقدر ما كانت تحمل من الشكل الروحاني الرائع أمام كل الناس، حتى إخوتي وزملائي بمدارس الأحد، بل وأمام نفسي، إلا أن ذلك كان يخفي جانبا آخر غير ظاهر وعميق غاية العمق، يحمل تطلعاتي نحو الكرسي البطريركي. مدارس أحد الجيزة تقوم على تجمع شبابي ضخم يعتمد على الجامعة، وكانت لا تخفي تطلعها كمجتمع نحو الإمساك بزمام الكنيسة كلها تحت شعار التكريس والخدمة، وكان الشعار مقبولا على المستوي الشعبي والكنسي، حيث أنه لم يطلب أحدا لنفسه سلطانا ومجدا بل التكريس والبذل والتضحية لخدمة الكنيسة. فكان عملا مجتمعيا من حقه أن يدفع بمن يراهم صالحين لتمثيله لبلوغ المناصب الرفيعة في الكنيسة. كان الشخص محددا بالاسم حيث أنه الشخص الأول الذي تقدم لخدمة التكريس كراهب، إنه الأب مكاري السرياني، وهو من اللطف ودماثة الخلق ما يثير إعجاب الجميع. كنت أشعر بالغيرة الشديدة من ذلك الشخص فحتى لو قررت الانضمام للجيزة والتكريس الرهباني فلن أكون الأول.

اللقاء بالأب متى المسكين فتح لي بابا كبيرا. أبونا متىَّ ذو صيت رائع ذائع في كل أرجاء الكنيسة القبطية، ويحمل شهرة كبيرة وشعبية ضخمة دون أن يحاول أن يبذل أي جهد لبلوغ تلك الشهرة. في نفس الوقت كان يرفض تماما أي منصب كنسي فهو مُكرَّس لحياة الرهبنة لنهاية العمر، فلن يكون منافسا لي في يوم ما. وبعد وضع اسمي على كتابه الأول رأيت في ذلك ثقة ضخمة تقربني منه أكثر والعمل في معيته، حيث أنه يمثل اتجاه فكري مستقل تماما عن مدارس أحد الجيزة التي بدأت تتوجس منه خيفة وتخشى شهرته.

كان أبونا متى المسكين في الكثير من مواقفه يذكرني بالأستاذ إدوارد بنيامين فبقدر ثراء خبرته وشهرته كان يتباعد عن المناصب والشهرة. فكان ينسى تماما نفسه في تحقيق أهدافه الروحية بصبر لا يلين. وبقدر شعبية أبونا متى في ذلك الوقت لم يكن له تلاميذ يوم أن التقيت به لأول مرة. بعد ذلك ترهب معه في عام 1951 الأب متياس (الأنبا دوماديوس مطران الجيزة فيما بعد) وهو من خدام مدارس أحد الجيزة الملبين لحركة التكريس ومن المقربين جدا من الأب مكاري السرياني. وفي عام 1952 ترهب شاب آخر اسمه جوزيف من الفيوم خريج كلية العلوم، تتلمذ للأب متى المسكين وترهب باسم الأب مينا السرياني، وهو إنسان روحاني منكرا لنفسه للغاية كل هدفه حياة الرهبنة الخالصة. أبونا مينا هو الذي قام بطبع كتاب حياة الصلاة وحده في المطبعة اليدوية للدير الموجودة بالغرفة التي بها شجرة الأنبا إبرآم.

كنت أشعر أني أصبحت أقرب شخص من الأب متى المسكين حتى من قبل الرهبنة، مما أعطاني الفرصة كاملة لتحقيق الكثير من تطلعاتي.

كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية بدأت شهرته تذيع في الكنيسة، بل وأيضا خارج مصر خصوصا في الكنيسة الإنطاكية حيث قال عنه الأرشمندريت جورج خضر، "لأول مرة صار الأقباط يعلموننا بعد أن كانت كتبنا أكثر خصوبة وروحانية ومصدرا لتعليمهم". وبلغت أخبار الكتاب للأب البطريرك الأنبا يوساب. ورغم كل أخطاء الأنبا يوساب فقد كان محبا للتعليم ونشر المعرفة، وقد كان مثقفا ثقافة روحية عالية

حيث تخرج من جامعة أثينا اللاهوتية. وكان لإطلاعه على كتاب "حياة الصلاة" أثرا بالغا في نفسه. لكني لم أكن لأتصور أبدا أن هذا التأثر يمكن أن يدفعه لهذا الحد، فأرسل للأنبا ثيؤوفيلوس أسقف الدير يطلب منه أبونا متى المسكين ليعينه وكيلا للبطريركية في الإسكندرية. كان ذلك غير متوقع أبدا لأسباب متعددة. عادتا ما يكون وكيل البطريرك سنه كبير وله خبرة طويلة، ومتمرس على الإدارة ليناسب منصبه حتى يستطيع أن يسيطر على شيوخ الكهنة، وعلى جهابذة المجلس الملي السكندري من علية القوم بالإسكندرية، بينما كان أبونا متى شاب في مطلع الثلاثينات من عمره. أما وجه الاستغراب الشديد، فكيف للأنبا يوساب بعد كل ما لاقاه من مدارس الأحد ومجلتها ورئيس تحريرها من احتجاجات، وبعد كل تلك الاتهامات التي وجهت إليه عن انتشار السيمونية في عصره ومهاجمة تلميذه الفاسد. كيف له بعد كل ذلك أن يختار واحدا يعتبر من قادة مفكري مدارس الأحد ليكون وكيلا له في الإسكندرية؟!!! كتاب حياة الصلاة كان يحمل في مقدمته اسمي ذلك الاسم الذي يعرفه البابا جيدا عبر سبع سنوات مضت، قدمت فيها الكثير من الحقائق التي عرَّضت البابا مرات للكثير من المشاكل والإحراج... لا شك أن ذلك الاختيار كان من بين أهدافه أن يحمل تأنيبا مهذبا، شديد الوقع، موجها لمدارس الأحد لم يلتفت إليه الكثيرون.. إلا أني أنا بالذات لم يكن ممكنا أن يمر عليَّ دون أن أدرك ذلك المغزى، فلا شك أني قد أحسست بالرسالة، وقلت في نفسي "هذا القلم على وجهك يا أرساني".

أبونا متى المسكين كان في ذلك الوقت بمغارته خارج الدير يعيش حياة الوحدة التي عرَّفنا بها في كتاب حياة الصلاة ولا يريد أن يقطع أحد عليه خلوته، فلما وصلته دعوة الأنبا يوساب له للعمل بالإسكندرية كوكيل للبطريركية رفضها بشدة. كان ذلك مثارا لتعجب الجميع فكيف يرفض دعوة كهذه تضعه في موقع رفيع، يتمناه أي واحد من شيوخ رجال الإكليروس المشهورين. كان كل ذلك يزيد من إعجابي به وتأكدي من أنه لم يكن يسعى بأي شكل للمناصب الكنسية، فهو يؤمن بالرهبنة للرهبنة فقط بإصرار، فلو حدث يوما ما أن عرض عليه

الترشيح للبطريركية فحتما سيرفضه، وذلك يعطي الفرصة الأكبر لي لذلك الترشيح. كل ذلك كان يدفعني قدما للمضي في طريق الرهبنة.

كان من دواعي تردد أبونا متى للذهاب للإسكندرية هو أنه أصبح مسئولا عن رهبان ولا يريد أن يتركهم بعد إن أزهرت الخمائل وأصبحت مستعدة للإثمار، فكان الدير كجنة فيحاء يزدان بكل أنواع الزهور الروحية. ومن ناحية أخرى كان أبونا متهيبا من العمل بالإسكندرية الذي يتطلب خبرة خاصة وحنكة سياسية ودبلوماسية، قد لا يصلح لها الراهب المستقيم الرأي، خصوصا لو كان من النوع الشديد العفي روحيا وجسديا.

قداسة البابا الأنبا يوساب أعاد طلبه لأبونا متى أكثر من مرة بينما كان يرفض بشدة. وفي المرة الثالثة أصدر أمره لأسقف الدير لتنفيذ القرار البطريركي الواجب النفاذ بتعين الأب متى المسكين وكيلا للبطريركية في الإسكندرية. وبعد ذلك لم يكن هناك أي مجالا للتهرب من ذلك التكليف، فترك أبونا متي مغارته بالجبل وعاد إلى الدير ليعد نفسه للسفر الفوري للإسكندرية ليبدأ تجربة جديدة. وصل أبونا متى للإسكندرية في شهر مارس من عام 1954.

(7) توديع حياة الصخب والذهاب إلى الدير للرهبنة

مع تلك الصراعات المحيطة كان أيضا هناك الكثير من الجوانب المشرقة جدا جعلتني أحب حياة الرهبنة بشدة وبصدق. بدأت أدرك الكثير من الحقائق عن الرهبنة في زياراتي المتعددة للأديرة. كان عدد الرهبان في أديرة مصر كلها قليل جدا. فكانت بعض الأديرة لا يزيد عدد الرهبان بها عن سبعة أو ثمانية مثل دير الأنبا بيشوي ودير أبو مقار، أما دير السريان الذي كان يحوي أكبر عدد من الرهبان بين كل الأديرة المصرية فلم يبلغ عدد الرهبان به العشرين بما في ذلك الرهبان الذين يخدمون خارج الدير مثل الأب مكاري والأب صموئيل تاوضروس السرياني. ورغم قلة العدد إلا أنه كان بين هؤلاء الآباء من القداسة والسمو ما هو مذهل للعقل الأمر الذي لم أكن أتوقعه أبدا قبل زياراتي للأديرة. عدد الرهبان من خريجي الجامعة كان أقل من عدد أصابع اليد الواحدة ممن سبقت وذكرتهم، ومن بين الرهبان غير الجامعيين كان هناك بعض المثقفين جدا، كما كان هناك من الأميين الذين تعلموا القراءة والكتابة في الدير، ومع ذلك كانت ظاهرة القداسة قوية ومؤثرة يلمسها كل من يقترب منهم، فلا تملك أن تمنع نفسك من المشاعر الجياشة المختلطة بين الروعة والبهجة والمهابة.

كانت تلك الأديرة مقصدا لزيارة الكثير من السياح الأجانب من كل دول العالم خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية، وكان أغلبهم من العلماء الكبار في تخصصات متعددة كالتاريخ أو العمارة أو العلوم الإنسانية من الباحثين وأساتذة الجامعات. كل من قابلتهم من السياح كانوا يخرجون بعد زيارتهم منبهرين مما رأوا، والكثير منهم يقرر العودة مرة أخرى لقضاء وقت أطول ليتمتع بتلك المشاعر الغير قابلة للوصف. ومنهم من وجد ضالته في أبحاثه ودراساته الأكاديمية. لقد تيقنت تماما أن انبهاري بالأديرة لم يكن وليد ظروف خاصة بي لكنه واقع وحقيقة تفرض نفسها على كل من يزور الأديرة في تلك الأيام، مع أن الأديرة كانت فقيرة جدا ولا يوجد بها كهرباء أو وسائل راحة كافية إلا أن ذلك الجو العتيق كان له من الجمال الأخاذ الذي يلهب المشاعر. وما كان يزيد تعجبي، بل كان أمرا مذهلا حقا، هو لقاء

الرهبان مع الزوار الأجانب، فتجدهم يتحدثون معهم بلغة إنجليزية أو فرنسية صحيحة بكل طلاقة. ويجيبون على كل أسئلتهم بدقة علمية بالغة مما يدعو للتعجب. بينما أنا خريج كلية الآداب قسم التاريخ كنت أجلس مشدوها وأنا أستمع للحوار العلمي البديع بين رهبان غاية في البساطة وعلماء كبار معجبين أشد العجب بما يسمعونه بلغتهم. ولقد تعلمت الكثير وعرفت الكثير عن الرهبنة وأصولها من خلال إنصاتي لتلك الحوارات العلمية الروحية البديعة.

كان هناك ثلاثة رهبان بدير السريان يكلفهم الأسقف رئيس الدير بلقاء الزوار الأجانب، هم أبونا فلتأوس وأبونا متاءوس وأبونا لوقا، عندما سمعتهم لأول مرة في حديثهم تعجبت جدا من معلوماتهم القيِّمة في مجالات متعددة ولغتهم التي ينطقونها بلفظ سليم واثق ومتمكن من اللغة والمعاني. بينما لو رأيتهم خارج ذلك المشهد تجدهم رهبان بسطاء جدا يعيشون حياة عالية جدا من القداسة والزهد وإنكار الذات. كان أبونا فلتاؤوس يعيش في إحدى حجرات الحصن القديم وحده. وعند زيارة الحصن في أي وقت كان يشجيني التسمع لأنين الصلاة المنبعث من قلايته العتيقة مع رائحة البخور التي تنتشي بها نفسي وروحي. لقد ذكرني ذلك بكتابات جون كاسيان ورفينوس الفرنسيان اللذان حضرا إلى مصر في القرن الرابع لزيارة الأديرة المصرية والرهبان. كل منهما كتب على حدة مشاهداته عن رهبان مصر حيث أشادا بعظمة تلك الرهبنة، كما سجلا أقوالا وأعمالا وأحاديث وتفسيرات الرهبان المصريين للكتاب المقدس. يقول كاسيان أن بعض من هؤلاء الرهبان لم يكونوا يعرفوا الكتابة والقراءة. وكانوا يحفظون الكتاب المقدس ويجيدون شرحه وتفسيره بتأملات أذهلت العالم. كل ذلك دفع جون كاسيان أن يقوم بتأسيس الرهبنة البندكتية في بلاد الغال على غرار الرهبنة الباخومية المصرية. حيث انتشرت لكل العالم.

عند زيارتي لمكتبة الدير وجدت الكثير من كتب المستشرقين الأجانب وتسجيلاتهم المبدعة المتعددة عن الأديرة والرهبنة المصرية. كما وجدت كتابا ضخما عن الأديرة ورسوماتها المعمارية للأمير عمر طوسون الذي كان يعشق الرهبنة، الأمر الذي دفعه لأن يقوم برفع

المباني الأثرية للأديرة القديمة ويضعها في كتاب ضخم علي ورق مصقول فاخر معروض بشكل يشعرك بضخامة العمل والجهد العلمي المبذول الذي يظهر قدر اهتمامه بلا تقديره للرهبنة. الكتاب معروض بشكل لائق بالأديرة القبطية. كل ذلك كان يدفعني بشدة للإسراع في اتخاذ القرار، لترك كل شيء والذهاب لأبدأ حياتي الرهبانية.

أمر كان يشغلني وأريد أن أراه وأفحصه قبل أن أقرر بشكل نهائي المغادرة للدير، فقد كانت لي رغبة ملحة في زيارة الأديرة التي شهدت مغامرات المحامي المسلم البارع حافظ نجيب. وفعلا رتبت زيارة لدير البرموس وهو واحد من الأديرة المتعددة التي حفلت بمغامراته. وكنت قد تقصيت وسمعت ما يدور من حكايات حول هذا الدير، فلم تكن مفاجأة أن ألتقي هناك بأبونا فرنسيس الذي كنت قد سمعت عنه. إنه راهب جامعي خريج كلية الحقوق ولم يكن له صلة بمدارس الأحد أو أي نشاط ديني مسبق.. كل من قابلته في الدير كان يعرف أن الراهب فرنسيس يتبع خطوات حافظ نجيب لكنه مكشوف للكل. كانت فرصة لأتعرف عليه فالتقينا وتحدثنا في كل شيء، وتعرفت بمشكلته، وكل عناصر الفشل في سياسته. كان الرجل يبذل جهدا كبيرا لكي يأخذ شكل التدين لكنه لم يكن له لا الإمكانية ولا الخبرة السابقة بالشئون الكنسية. قام بترجمة كتاب اعترافات القديس أغسطينوس للغة العربية وطبعه على نفقته لكنه لم يجد مشتري. تعلمت كثيرا من هذه الحالة من الإفلاس فمن أسوء الأمور أن يعرف الناس عنك أنك تسعى نحو الكرسي البطريركي فسوف يحاربك الكل بشدة. وفعلا أبونا فرنسيس لم يستطع أن يكمل في الحياة الرهبانية فغادر الدير بعد أن قضى وقتا مريرا عصيبا. تعلمت الدرس فيلزم في كل مناسبة التأكيد على فكرة الرهبنة من أجل الرهبنة وأن تهاجم بشكل قاطع وبحدة فكرة اعتلاء الراهب للمناصب الكنيسة، الأمر الذي كان يفعله أبونا متى المسكين عن اقتناع. وكان أبونا مكاري السرياني يقول ذلك بشكل ضعيف بينما كل من حوله يدفعه نحو المنصب الرفيع. أما أنا فقد وجدت أن الحديث عن الرهبنة والتوحد والمغارة والسياحة هي أفضل الطرق لأبعاد عني أي شبهة قد تدمر مستقبلي الكنسي. وتعرفت على رهبنة المغارات.

أمر سمعت عنه فأذهلني وأخذ الكثير من تفكيري، الرهبان السواح خارج أسوار الدير أو في المغارات. أثناء إحدى زياراتي لدير السريان طلبت زيارة المغارات فقام الأب الربيتة (المسئول الإداري) بترتيب ذلك. بعد القداس الصباحي وبعد تناول الإفطار، حضر راهب يعرف أغوار المسير في الصحراء، واصطحبني لزيارة المغارات. لم نكد نسير قليلا حتى اختفت معالم الدير الأمر الذي أشعرني بالرهبة فالرمال أصبحت تحيط بنا من جميع النواحي دون أثر لمبنى كأننا نتوه في بحر من الرمال، ولا يوجد أي معالم لطريق أو اتجاه، فيمكننا المسير عبر الصحراء الغربية إلى مالا نهاية دون هدى، بعد أن قطعنا ما يقرب من ستة أو سبعة كيلومترات أشار الراهب بيده وقال ها هي مغارة أبونا عبد المسيح الحبشي. فحملقت بعيني فلم أرى شيئا. وبعد قليل بدأت تظهر تبة مرتفعة قليلا عن الأرض وبأسفلها حفرة صغيرة سوداء، فلما بلغنا المغارة تقدمنا الراهب وقال، يبدو أن أبونا عبد المسيح سائح في الجبل وغير موجود. رأيت أمامي حفرة مظلمة منحدرة داخل الجبل لا يزيد قطرها عن 40 سم فارتعبت حيث تبدو أنها حفرة لثعلب أو وحش من وحوش الصحراء. شجعنا الراهب وقال إنها المغارة التي يسكن فيه أبونا عبد المسيح، لكنه في أغلب الأوقات يسير في الصحاري سائحا بلا مأوى!!! تقدمنا الراهب واستلقى على ظهره ورجليه في اتجاه الحفرة الهابطة، وأخذ يزحف بيديه ليدخل الحفرة حتى اختفى عن أعيننا فارتعبت... وعندما سمعنا صوته يناديا تشجعت. بعد تردد شديد استجمعت قواي ورقدت على ظهري وبدأت الزحف لأدخل المغارة فوجدت نفسي داخل حفرة صغيرة محفورة بعناية، مربعة متساوية الجوانب، ضلعها لا يزيد عن متر ونصف وارتفاعها أقل من متر، فلا يمكن الوقوف بداخلها. فجلست مع الراهب الذي كان جالسا أمامي يشرح لي أسلوب حياة الراهب السائح الذي ليس له مأوى سوى هذه الحفرة. كان هناك رف منحوت بالحفرة يضع عليه شمعة وكبريت كما يضع عليه كتابه المقدس وهو الشيء الوحيد الذي يملكه، وهو يمسك به دائما في تجواله. وتفترش أرضية المغارة حصيرة بالية هي سريره الذي ينام عليها عند تواجده بالمغارة. كان أهم الأسئلة وماذا عن وحوش الصحراء والثعابين الفتاكة المنتشرة

بالمنطقة، فكان الجواب عجيبا... إن الوحوش والثعابين السامة تأنس به ويأنس لها يكفي أن يرسم عليها علامة الصليب فتطيعه. إنها ليست خرافة ولا خيال بل واقع أراه بعيني رأسي، يعيشه ذلك المتوحد في تلك الفيافي منذ عشرات السنين. أبونا عبد المسيح حضر الحرب العالمية الثانية في سياحته. القوات البريطانية التي عسكرت في تلك المنطقة حول مغارته ظنوه جاسوسا أثناء تجواله داخل المناطق الممنوعة، ففتحوا عليه النيران ولما لم يتأثر بطلقات الرشاشات خافوا منه وظنوه روحا. ولما اقتربوا منه تحدثوا معه ثم أخذوه لدير البرموس وتأكدوا من هويته فآنسوا له وتركوه لسياحته!!!

ولما خرجنا من المغارة إذ برجل أسود قصير حافي القدمين يلبس أسمالا بالية ويغطي جسده ببطانية قديمة. حياه الراهب المرافق لنا قائلا "إزيك يا أبونا عبد المسيح" فرد عليه التحية بلهجة إثيوبية غير مفهومة وغير مكترثة حتى بالناس المتطفلين علي سكنه!!! الرجل يحمل إنجيله تحت إبطه ووعاء صغير (شكل زمزمية) به ماء هذه كل أملاكه التي يجول بها الفيافي ليلا ونهارا. كيف يعيش في قيظ الصحاري جائلا بها وماذا يفعل في شتائها القارص بتلك الأسمال التي لا تقيه... إنها أمور يصعب على عقولنا فهما أو تقديرها!!! الرجل لا يأبه لأحد، جلس على الأرض فجلسنا حوله وأخذنا نحادثه لم يكن يهتم بوجودنا بقدر ما كان يعيش في ملكوته. هذا المنظر دفعني لأحلامي وشعري بعاطفة جياشة تشتهي التوحد مثل هذا الراهب الغريب... بدأت ألا أفهم ما أريده، فأنا أريد أن أكون كل شيء، تحركني عاطفة مشبوبة نحو الأخذ من الحياة كل ما فيها طولا وعرضا، يدفعني عقلا متقدا بالحماس يريد أن يعيش كل أنماط الحياة في نفس الوقت، رغم أني أعرف أن ذلك مستحيل.

كان أبونا متى المسكين له مغارة محفورة بالجبل تبعد قليلا عن مغارة أبونا عبد المسيح الذي كان يدربه على حياة الوحدة. اقترح الراهب المرافق لنا أن نقوم بزيارة مغارة أبونا متى فرحبنا بذلك. حفر أبونا متى مغارته بنفسه في الجبل، استغرق حفر المغارة منه نحو ثلاثة أسابيع، حيث كان يذهب كل صباح حاملا أدوات الحفر والماء ويعود في المساء للدير حتى اكتملت. لم تكن مغارة أبونا متى تشبه مغارة

أبونا عبد المسيح، لكنها كانت أكثر اتساعا فيمكن الوقوف والتحرك فيها بحرية، فكانت بحجم الحجرة الصغيرة وكان لها باب خشبي قوي له قفل كبير وهناك باب مغطى بالسلك لمنع الحشرات كما كان لها شباك علوي زجاجي أيضا مغطى بالسلك لمنع الحشرات الكثيرة والخطيرة التي تعيش بتلك المنطقة الصحراوية النائية. ومع كل هذه الوسائل التي تعتبر ترفيهية بالنسبة لمغارة أبونا عبد المسيح المفتوحة بلا أبواب فإن حياة المغارة مخيفة جدا وتحتاج لإيمان شديد قادر أن يتحمل الوجود بعيدا تماما عن أي إنسان. أبونا متياس وأبونا مينا أيضا كانا يتدربان على حياة المغارة تحت إشراف أبونا عبد المسيح الأب الروحي القوي المتمرس على حياة الوحدة في أقصى وأقسى صورها.

لم تفارق أحلامي تلك الصورة العجيبة من الحياة؛ وفي لحظة من لحظات الصدق مع النفس حاورت نفسي متسائلا؛ هل تستطيع في يوم من الأيام يا نظير أن تعيش حياة ذلك المتوحد؟

هل أنت فعلا تحتمل أو تريد العيش في مغارة مثل جحر وحش بري لتكون مسكنك؟ كانت الإجابة بالطبع لا...

هل تستطيع أن تعيش جوَّالا في تلك الفيافي بدون حذاء يحمي قدميك من قيظ الصيف في الصحراء حيث تصل درجات الحرارة فوق الرمال لدرجات لا تحتمل، ولا تجد ما يحمي رجليك من الصخور والرمال؟ كانت الإجابة بالطبع لا...

هل ممكن أن تكتفي بأملاك تتلخص في علبة كبريت وشمعة وكتاب مقدس وزمزية؟ إنها حقا صورة فريدة تتحدى الإنسانية كلها خاصة المتكالبين على الأموال في جشع. لكن هل من الممكن أن أكون أنا نظير شخصيا ذلك المتوحد مع كل تطلعاتي؟ كانت الإجابة بالطبع لا...

هل ممكن أن أعيش جوالا في الفيافي بلا أي شكل من الحماية فلو مرضت مثلا لن أجد طبيبا ولن يشعر بي إنسان حتى لو مُتُّ، ولو أكلني وحش لن يشعر بي أحد. وجاء الجواب من أعماقي يقول "ومين يا شنودة يروح مستشفى "Cleveland Ohio" ...

وصارت همهمة وتلبد الجو حولي.. هل نسيت أنك تحاكم أمام البابا المعظم الأنبا شنودة؟!!! ماذا تقصد ومن هو شنودة الذي تكلمه؟!!! هل تقصد قداسة البابا؟!! وتتكلم عنه بهذا الاستهتار؟!! وحدث هرج ومرج ... من تقصد بكلامك المختل؟ وبدأت المحاكمة تأخذ منحى خطرا!!!!

أخذ أحد الحضور الحماس فبدأ يهتف بسقوط نظير جيد محارب البطاركة...

قام نظير ملوحا بكلتا يديه يطلب الفرصة ليوضح الأمر...

تدخل قداسة البابا لتهدئة الجمع الهادر الثائر...

قال نظير... معذرة يا سادة فانا أحادث شنودة القابع في أعماقي منذ الزمان الذي مضى وهو يحدثني من المستقبل، حيث كان يطالبني أن أحقق له خروجا آمنا لعالم الواقع والمستقبل الذي أراه الآن من الماضي. فلقد كنت أحرَصُ عليه منكم جميعا. هل نسيتم أني أحدثكم من الماضي من وراء الزمان. لقد استدعيتموني للمحاكمة بقرار بابوي وأنا الماضي، والماضي لا يحتمل تعديل وليس هناك فرصة لرأي أو اقتراح. الماضي وثيقة تاريخية لا تقبل النسخ أو التغيير. وأنا أفتح الوثيقة بناء على طلبكم إياي للمحاكمة... هل غريب أن يكون شنودة قابعا في أعماق نظير منذ البدء؟ وهل غريب أن يكون نظير عمل في الماضي كل ما عمل من أجل تحقيق خروجا آمنا وسعيدا لشنودة المستقبل؟ هل نسيتم أن شنودة كان هو نظير في طوره الأول البعيد؟ فليس غريبا أن يتحاورا لرسم خطة المستقبل...

"أكمل يا نظير حديثك وليتك توجز"، قال الأنبا شنودة البطريرك لكي يحسم الموقف.

نعم لقد كنت أتشدق بالمغارة والسياحة في البرية، وفعلا كانت أمور تبهرني وتذهلني وتثير كل مشاعري، كما أذهلت غيري من كل من رآها. فإذا كان ذلك ليس في مقدوري فلماذا لا أتشدق به؟ كانت كل مشاعري وتفكيري تخدم مستقبل ذلك القابع داخلي. لا شك أن الحديث عن المغارة والسياحة في الصحراء أمورا مبهرة وقد تكون صادمة

للعقل لكل من يراها أو يسمع بها. وليس من باب الترف استخدام تلك الكلمات لدغدغة المشاعر من وقت لآخر لحساب المستقبل المرتقب. فمثلا أنا لم أكن ضابطا بالقوات المسلحة إلا لمدة ساعة واحدة علقت فيها دبورة كضابط احتياط بعد تدريب إجباري خضع له ملايين المصريين من قبلي والملايين من بعدي. لم أشترك في حرب ولم أضطر في يوم أن أحمل السلاح للدفاع عن وطني. لكن استخدام عبارة ضابط بالقوات المسلحة لها جرس ونغم في المسامع متى قيلت في موضعها تضيف تأثيرا خاصا على من يجهل ملابسات تلك النجمة. بالمثل فالمغارة والتوحد والصحراء تضيف لمسات رائعة لمن يعرف كيف يحسن استخدامها. ولقد أحسنت استخدام كل ذلك.

أقول ذلك للدفاع عن التهم الموجهة لي. فبينما كان كل جهدي وتدبيري مكرسا لحساب الأنبا شنودة البطريرك، وكان جهدا فائقا حقق كل الأهداف بكل تفوق فأنا اليوم أتهم بأني أهاجم البطاركة. نعم لقد هاجمت بطاركة ولكن كان كل ذلك لحساب الأنبا شنودة البطريرك وحده حيث شاركت بالنصيب الأوفر لبلوغ الهدف بنجاح.. وقد بلغنا الهدف معا...

تصفيق حاد مدوي في القاعة وزغاريد ....

****

في يناير عام 1954 انتقل والدي رحمه الله من هذا العالم بعد أن قضى أياما عصيبة في مرضه العضال في بيت أخي مما كان سببا في متاعب شديدة للعائلة. اعتبرت ذلك الحدث علامة أخيرة تدفعني للذهاب للدير. لم أكن اعتقد فيما يسمى بالدعوة التي يتقبلها الإنسان للرهبنة، لكني كنت أؤمن أن الرهبنة هي قرار شخصي، وثبات الفكرة هي الدليل الوحيد للدعوة. وبعد أن تيقنت من رسوخ تلك الفكرة كان علي القيام بالتنفيذ... سلمت كل مسئولياتي؛ المجلة والملجأ وخدمة مدارس الحد للدكتور وليم سليمان في يوليو عام 1954، إعدادا للذهاب للدير.

ذهبت إلى الدير للزيارة كعادتي مع مجموعة من خدام الكنيسة، كان ذلك في شهر يولو عام 1954 لم يمضي سوى أيام قليلة حين تقرر

رسامة اثنين من الجامعيين رهبان جدد بدير السريان. الراهب الآخر كان من مدارس احد الكنيسة البطرسية، وكان قد قضى تحت التلمذة ما يقرب من العامين بينما أنا لم أقضي سوى أياما قليلة في الدير قبل الرهبنة، مما يظهر الثقة الكبيرة التي كنت أحوزها سواء عند الأب الأسقف أو عند أبي الروحي أبونا متى المسكين، الذي حضر من الإسكندرية خصيصا للاشتراك في رهبنتي. وتمت الرسامة يوم الأحد 18 أغسطس عام 1954باسم الراهب أنطونيوس السرياني بينما الراهب الآخر أخذ اسم اسطفانوس. وبذلك مات نظير جيد عن العالم وصار تاريخا.. ليبدأ الراهب أنطونيوس سيرته الرهبانية.

تصفيق حاد مدوي في القاعة وزغاريد ....

****

وهنا جاء دور الدفاع فطلب قداسة البابا من أبونا أنطونيوس أن يقوم بالدفاع عن المتهم نظير جيد، فقام الراهب الوقور بكل تؤدة ووقف في وسط الجمع الحاشد ليلقي بدفاعه الرصين.

صاحب القداسة، أب الآباء، وراعي الرعاة، ثالث عشر الرسل، وقاضي المسكونة، الطوباوي، رئيس رؤساء الكهنة الجزيل الإكرام، الأنبا شنودة الثالث أدامه الله لنا وعلينا سنين عديدة... وأزمنة سلامية هادئة مديدة.. آبائي المطارنة والأساقفة... وإلى كل الشعب الذي حضر ليشاركنا في هذه الاحتفالية التاريخية النادرة...

لقد قلت احتفالية وليست محاكمة فبعد الحديث المطوَّل للأستاذ نظير جيد الذي أوضح فيه دوره الرائع والخطير وجهده الكبير الذي كلل بوضع ذلك التاج الذهبي المتلألئ فوق هامة الأب البطريرك قداسة الحبر الأعظم الأنبا شنودة الثالث، صاحب أخطر وظيفة على الأرض. كل ذلك جعلني لست أجد إضافة لما قاله الأستاذ نظير للدفاع عن نفسه، بل بالأكثر أجد من الأسباب لطلب تكريمه لما قام به من أعمال عظيمة. وبينما نحن مجتمعين اليوم إكليروس وشعبا، أجدها فرصة مواتية لتكريم الأستاذ نظير جيد وذلك بالاحتفال بعيد ميلاده السعيد. وليكن الاحتفال عالميا في كل أرجاء الأرض حيث انتشر السلطان

البابوي الخالد في كل المعمورة، فالشمس لا تغرب عن أراضي سلطانه التي تمتد من أستراليا إلى غرب أمريكا ثم ترتد مرة أخرى شرقا إلى جزر الهاواي مُغطِّية كل ما بينها من ممالك وشعوب وأمم وألسنة، كلها تتبع للكرازة المرقسية تحت السلطان المقدس لأبينا البطريرك المعظم.

تصفيق حاد مدوي في القاعة وزغاريد ....

****

الحكم بعد المداولة..

****

محكمة...

البابا المعظم يلقي قرار المحكمة

الحكم على المتهم بالبراءة مع الأمر بتكريمه بحسب طلب أبونا لراهب أنطونيوس السرياني والاحتفال بميلاده السعيد... رفعت الجالسة

تصفيق حاد مدوي في القاعة وزغاريد ....

عزف اللحن الكنسي الشهير *Happy Birth Day To You*

يغلق الستار ببطء مع أنغام الموسيقى في وسط حماس شعبي بالغ

****

انتهى الفصل الأول ويعقبه الفصل الثاني قريبا عن

الراهب أنطونيوس السرياني

التلمذة في دير السريان للأب متى المسكين- الذهاب لدير الأنبا صموئيل- العودة للسريان وإعلان الحرب على الأب متى المسكين بعد الترشح للبطريركية